الفصْـلُ الـرَّابِـع

عُـلُوّ هِمَّـةِ الْقَـادَةِ

أَيْنَ سَعْـدٌ وَخَـالِدٌ والمثـنَّى ... كلُّهـم بالدِّمـاءِ يَنْصـرُ دِينَـهْ
والسَّـرايا يقـودُها ابنُ زيادٍ ... رَكِبَ البَحْرَ لا يَهَابُ سفينَهْ
وصـلاحٌ كغُرَّةِ الصُّبحِ يَرجو ... أن تُعـيدُوا وتبْعثُـوا حطينَـهْ
هَلْ تسيلُ الدماءُ حتى ترَوِّي ... صَخْرةَ القدسِ والقبابَ الحزينهْ

□ عُلوُّ هِمّة القَادة □

تُشْرقُ وتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإسْلام أسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ .. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً .. لا بألف .. بل واللهِ أمَّة .. قادوا جيوشَ الإسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ .. فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد ، ولله دَرُّ أبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقَّاصٍ ، والمثنى بن حارثة ، وعمرو بن العاص ، والقعقاع بن عمرو التميمي ، وعاصم ، وزهرة ، وعتبة المرقال ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقتيبة بن مسلم ، ومَسْلمة بن عبد الملك ، رهبان الليل وفرسان النهار ... ملأوا المحاريب طاعةً وسجودًا ، والميادين بطولة تأخذ بالألباب .

أما واقِعُنا .. ويا بُؤْسَ واقعنا ، فكما يقول الشاعر :

يا بلادًا عزّ الفوارسُ فيها ... وتخلَّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإسْلامُ لغَيْبة فُرْسانِهِ ، وعلا الصوتُ « وامثناه » ... ولا مثنَّى للخيل ، « وامعتصماهُ » .

رُبَّ « وامعتصماهُ » انْطَلَقَتْ ... مِلْءَ أفْواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها ... لمْ تصادفْ نَخْوةَ المعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة :

كَسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالهْ ... وَحَطَّمْنَا بِلا وَعْيٍ نِبَالَهْ
فمزَّقَنا العدوُّ ولا جهادٌ ... وشرَّدَنَا الطُّغَاةُ ولا عَدالهْ
وباتتْ أُمَّةُ الإسلامِ حَيْرَى ... وبات رُعَاتها في شَرِّ حالهْ
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحَزْمٍ ... ولا الفاروقُ يُورِثُها فِعَالَهْ

ولا عُثمانُ يمنحُها عطاءً ... ويُرْخِصُ في سبيلِ اللهِ مالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ ... يُفَيِّئُنَا إلى « عَدَنٍ » ظِلالَهْ
ولا زيدٌ يقودُ الجَمْعَ فيها ... لحَرْبٍ أو يُعِدُّ لها رجالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا ... فتخشى ساحةُ الهَيْجا نِزَالَهْ
ولا حطينُ يصنعُها صلاحٌ ... طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلَالَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا ... وقد فقدتْ مآذِنُنَا بلالَهْ
وأَقْصانا يُدَنِّسُه يهودٌ ... ويَعْبَثُ في مَرابعه حُثَالَهْ
نَشُد رِحَالنا شرْقًا وَغَرْبًا ... وأولى أن نشدَّ له رحالَهْ
وَشَعْبٌ ضائعٌ في كلّ أرضٍ ... وجُلُّ مناهُ أَنْ يُرضي « جَمَالَهْ »
وراعي الشعب سجّانٌ غشومٌ ... وسفّاحٌ يَسِنُّ له نِصالَه
وحادي الركبِ بومٌ أو غرابٌ ... وقد قادَ الجموعَ «أبو رغالهْ»
يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا ... ويلعَقُ من كؤوسهم الثُّمالَهْ
يقبِّل راحةَ الطاغوتِ حينًا ... ويلثمُ دونما خجلٍ نِعَالَهْ
فيرْتعُ في مرابعنا دخيلٌ ... يُطارِد في حضارتنا الأصالهْ
إذا سألَ الزعيمُ مزيدَ ذُلٍّ ... لشعب لا يَرُدُّ لَهُ سُؤالَهْ
وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ ... ولا قلبٌ يَعِي صِدْقَ المَقَالهْ
وَهَمُّ الشعبِ ثوبٌ أو رغيفٌ ... و« صَكٌّ » من رصيدٍ أو « حوالَهْ »
وألقاب يتيه بِهَا قرودٌ ... وليس لها مَعَانٍ أو دلَالهْ
« سعادته » شَقَاءٌ في شقاءٍ ... وقد رَفعتْ « معاليه » السَّفالَهْ
« سيادتُه » يقيمُ على هوانٍ ... « سماحتهُ » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيلٌ ليس يدري ... بأن النَّاسَ قد فضحوا هُزالَهْ
و« دولَتُهُ » يعيش مع الأماني ... ويخشى أن تُفاجِئَه الإقالهْ
مَضَغْنا قلبَ حَمْزةَ وانْثنينا ... نذوقُ المرَّ أَوْ نجني وَبَالَهْ

مُـؤامـرةٌ يُدَبِّرُهَـا يَهـودٌ ويرعاها عميلٌ لا أبا لَهْ[١]

أبو عبيدة بن الجراح ، أمين هذه الأمَّة ، وفاتح بلاد الشام :

أمين الأمة ، أول من لقب بـ : « أمير الأمراء » ، مَنْ أمَّره رسولُ الله ﷺ في حياته ، على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات ، على جيشٍ فيه أبو بكر وعمر .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لكلِّ أمة أمينًا ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء أهلُ نجران إلى النبي ﷺ فقالوا : ابعث لنا رجلًا أمينًا . فقال : « لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين » ، فاستشرف له الناسُ ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح »[٤].

« وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا ، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا ... يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهلَ الأرضِ لو اغترفوا منها

---

(١) قصيدة « ضلال وخبال » من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٢٠٧ - ٢١١ - المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي في فضائل الصحابة ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي في الفضائل ، وأحمد ، والطيالسي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة .

(٤) حسن : رواه ابن سعد في الطبقات .

جميعًا »[١].

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه ، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر .

ولقد ساد تحت راية الإسلام أنّى سارت جنديًّا ، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير .. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين .

ولّاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام ، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك ، ولكنّ أبا بكر أصرَّ على رأيه ، فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك ، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة في الشام بدلًا من أبي عبيدة الذي بقي على جند حمص ، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر ، وكان يقول عنه:« لا أمير على أبي عبيدة » .

وصيّر خالدًا موضع أبي عبيدة ، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق ، الذي لم يتم فتح دمشق فيه ، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه ، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطن ، أمين .... حتى انتهت المعركة . وعلم خالد بأمر عزله ، فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة ، فقال : « يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمْني ، وأنت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ؟! » فقال أبو عبيدة : « وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنتُ أعلمك إن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوالٍ وانقطاعٍ ، وإنما

---

(١) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد صـ ٢٦٢ دار الريان للتراث .

نحن إخْوانٌ وقوّامٌ بأمر الله عز وجل ، وما يضرّ الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة ؛ لما يعرض من الهلكة إلّا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم » .

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره .

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده : « إني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله ، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلكهم الله أو نموت عن آخرنا » وينضم إلى جيش أبي عبيدة ، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ، ولما يُسأل عن ذلك يقول : « ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته ، وهذا أحبّ إليّ من ابن عمي في دينه ، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم ، وأنا أشَدُّ استئْناسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره » .

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد .

يقول أبو بكر لهاشم : « يا هاشم ، إنا إنما كنا نَنْتَفِعُ من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر » ، فقال هاشم : « إنْ يُرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أقْتُل ثم أُقْتَل إن شاء الله » . قال أبو بكر : « يا هاشم إن من سعادة جدّك ، ووفاء حظّك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين ... وقد بعث إليَّ المسلمون يستنصرون على

عدوهم من الكفار ، فسرْ إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناسَ مَعَكَ ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد » . قال هاشم : « بل على أبي عبيدة » .

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام .. ويصير تحت إمْرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرْضًا .. عتادًا وعددًا .. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه ، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا ؛ قام فيهم خطيبًا ، فقال لمن يفتنون بقوته ، وعظمته وأمانته : « يَـٰأَيُّهَا الناسُ .. إني مسلم من قريش .. وما منكم من أحدٍ - أحمر ولا أسود - يفضلني بتقوى إلا وددتُ أني في إهابه ، أو مسلاخه » .

حيّاك الله أبا عبيدة .. وحيّا الله دينًا أنجبك ، ورسولًا علّمك .

و« لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحرْبيَّة سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام ، فتحدّث عنها العدو والصديق ، فإن شهرة أبي عبيدة في الحِلْم والرِّفْق ، وسعة الصدْر ، والأمانة والصدقة ، وحب السلام ، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام ؛ لذلك أحبوه ويسّروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا ، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء ، واطمأنتْ كثيرٌ من النفوس .

لقد كان أبو عبيدة قائدًا مكينًا ، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجلُ المكيثُ ، كما يقول عمر بن الخطاب[1] . وكان قائدًا مُتَّبِعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُهَا بكل أمانةٍ وإخلاصٍ ، وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[2] ؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبي عبيدة ،

---

(١) الطبري ٢ / ٦٣١ .

(٢) الطبري ١ / ٥٩٩ .

وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى » .

ولعلّ هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقْدام على خوض معركة من معاركه ، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان ، فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهْل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ، ورجَّح خالد بن الوليد ، فغضب مُعاذٌ وقال : « أَبِأَبي عُبَيْدَةَ يُظَنُّ ؟! واللهِ إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[1] وسمع معاذ رجلًا يقول : « لو كان خالد بن الوليد ، ما كان البأس ذو كون » وذلك في أيام حصار أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ:« فإلى أبي عُبيدة تضطر المعجزة ؟! لا أبا لك ؟ والله إنه لَمِنْ خير مَنْ على الأرض »[2].

ولقد كان رضي الله عنه من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها ، وعندما تحشّد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص ؛ أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية .

وكان رضي الله عنه مهيبًا ؛ مؤثرًا في نفوس رجاله حين كان يتجوَّل في معسكراتهم وهو يقول : « أَلَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنّسٌ لدينه ، ألا رُبّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا ! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات » .

وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار ، فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده ، فكتب إليه : « سلامٌ عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٤ .

أن أشافهك فيها ، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألّا تضعه من يدك حتى تُقبِل » فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين ، لا أجِدُ بنفسي رغبة عنهم ، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » فلما قرأ عمرُ هذا الكتابَ بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »[1].

لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية – استراتيجية – ممتازة ، فقد بعث بعضَ القوات لمشاغلة قوات الروم في « فَحْل » ، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ، ثم قصد « فحل » بقواته كلها ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في « فحل » و« دمشق » على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد .

كما أرسل خالدًا على رأس جيش ؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق ، مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته ؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحد ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان ، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد .

ولله دَرُّ القائد المكيث الذي يباغت قوات عدوه ... وسلوا « اللَّاذِقيَّة » تجبْكُم ؛ فقد سار أبو عبيدة إلى « اللَّاذقية » وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه ، إلّا بجماعةٍ كبيرةٍ من الناس ، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها ، ثم أَمَرَ فحُفرتْ حفائر عظيمة ، تَسترُ الحفرة منها الفارِسَ راكبًا ، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا ، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر ، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا

---

(١) ابن الأثير ٢ / ٢١٦ .

عنهم ، فأخْرجوا سَرْحَهُمْ وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يَرُعْهم إلَّا والمسلمون يصيحون بهم ؛ ودخلوا معهم المدينة ، ففتحوها عنوةً[١].

ولقد كانت معارك التطهير ، واستثْمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذّة « فقد فضّل أبو عبيدة التخلِّي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد ، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولِّي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزة عسكرية ، إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم السَّاحِق على المسلمين ، وسرعة إنجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها »[٢].

للهِ دَرُّ أبي عُبيدة ... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم ... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ .

للهِ دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا ، يرسل إليه عمرُ بن الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال لرسوله : « انظرْ ما يصنع » ، فقسّمها أبو عبيدة ، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »[٣].

ولما قدم عمرُ الشامَ ، تلقّاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : مَنْ ؟ قال : « أبو عبيدة » . قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْلٍ ، فسلّم عليه ، فقال عمر

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٠ ، وفي البلاذري صـ ١٣٧ : أن الذي فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت . ولكنه بأمر أبي عبيدة ومشورته ، أو تحت قيادته .
(٢) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٨٠ دار الفكر .
(٣) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٣ .

للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه ، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذْت متاعًا » – أَوْ قال : شيئًا – فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلّغنا المقيل »[١].

وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عُبيدة » فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا ، فقال : أين متاعُك ؟ لا أرى إلا لبدًا ، وصفحةً ، وشنًّا[٢] وأنت أمير !، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[٣] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قلتُ لك : إنك ستعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل !! فقال عمر : « غيّرتنا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » !

رضي الله عن أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك .. ومطهِّر الشام من دنس الروم : مرج الصفر .. فحل ، حمص ، بعلبك ، حماة ، شيرز ، معرة حمص ، اللاذقية ، وحلب ، أنطاكية ، يوقا ، الجومة ، وشرْمين ، ومرتحوان ، وتيزين ، وأنطاكية ، وقورس ، وتل عزاز ، ومنبج ، ودلوك ، ورعبان ، ودمشق ؛ كلها تعرف أبا عبيدة ؛ فاتحًا لَهَا ، إما عنوةً وإمّا صلحًا .

« كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ، ثم عاد مخلفًا سوريًّا ظاعنًا في أرض الروم ، التفت إلى سورية – وقال : « عليك السَّلام يا سورية ، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد » . أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف . فما خرج من شمشاط وحاذى سورية ،

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ ، وأسد الغابة ٣ / ٨٦ .

(٢) القربة الخلق .

(٣) السلة المستديرة .

وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال : « قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر ، أما اليوم ، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا ، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا ، حتى يولد المولود المشْئوم ، وليته لم يولد ، عليك يا سورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو »[1].

ومسك الختام فلسطين « إيلياء » بيت المقدس ، حاصرها حتى طلب أهلُها من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام ، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْح عمرُ بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر وفتح بيت المقدس .

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة ... لكأنّي به ينادي من وراء الغيب : هلْ فَتَحْنَا فلسطينَ ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود ؟ واحسرتاه ! واأسفاه .

مات القويُّ الأمين ... مات فوق الأرض التي طهرها من الروم ، وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيِّسين والنواقيس .

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن يثوي رُفَات نبيل ، كان مُسْتَقرًّا لِرُوح خيّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ .

أما في واقعنا فَسَلْ ملوك الهرولة إلى التطبيع ، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب : « لا أهرول بل أركض ركضًا » ، قالها الملك الذي يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين .

نعم يا أبا عبيدة ، هذا زماننا ... يقول ياسر عرفات : رابين ابن عمي ... رابين قائد شجاع .

---

(١) سقوط دمشق صـ ٥٢١ ، الطبري ٣ / ٦٠٣ ، والبلاذري ١٦٢ ، الأزدي ٢٣٤ .

رابين يتساءل إن كان عرفات يهوديا :

« في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ م أثناء توقيع اتفاق توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في العاصمة الأمريكية واشنطن ... وخلال حفل استقبال في أحد متاحف واشنطن بعد توقيع الاتفاق ، بدأ رابين ملاحظته متوجهًا إلى من حوله من الضيوف والمراسلين ، فقال : « في تراثنا اليهودي قولٌ مأثور يرى أن رياضة اليهود هي فنُّ الخطابة ، ثم تابع بعد فترة من الصمت ، وبكثير من الجدية مخاطبًا عرفات : « بدأتُ أعتقد أيُّها الرئيس عرفات أنك قد تكون يهوديًّا ... » وفي حينها ضجَّ الجميع بالضحك ، وصفقوا طويلًا !!! »[1].

في موقف العشق يا قدسُ :

سافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبي
يُقاومُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ
نَصَبوا الحَواجِزَ في طَرِيقِ العِشْقِ
واسْتَدعُوا الخَفَرْ
حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلَافَ الحُفَرْ
وَتَصَيَّدوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تراجعَ أو تَردَدَ أو كَفَرْ
يا عِشْق قَلْبِي مُنْذُ ما قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ ما بعدَ الذي
لا قَبلَ قَبْلَكِ حَيْثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَمَا

(١) الوعي الإسلامي العدد ٣٥٨ جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ صـ ٧٢ .

أنتِ العَشِيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والوَتْر
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
وَتَسْجِنُ فَجْرِيَّ الآتي وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللَّاتِ والعُزَى
لِيَبْرقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَنَاجِرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشْرَّعَاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيلِ
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ
بل يَطْوِيهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحْمِلُنِي وَيُسْلِمُنِي لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأَنَا بِهٰذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ فِي لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المُرصَّعِ بِالضِيَّاءِ وبالسَّناء وَبِالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافي
وَسَيَّافي

وَجَلَّادي الأَشِرْ
العِشْقُ أَشْرِعَتي وَصَوْمَعَتي
وَنَاقُوسُ الخَطَرْ
دُقّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ
لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي
فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ
ظَهْرِي تَخَلَّى بَاعَني
هٰذي ضُلُوعِي
تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ
وَتَذُودُ عَنْكِ الرِيحَ والإِعْصَارَ
في لَيلٍ تَدَثَّرَ بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَورْ
هٰذِي ضُلوعي تَلْطِمُ الموْجَ المُعَرْبِدَ
في بِحارِ الجُبْن والتَّدلِيسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ
هٰذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ
حَتَّى يَنْتَصِرْ
سَافَرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْل آلافِ القرونْ
سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرونْ
قَد كُنْتُ في الأُولى بحَشْدٍ مِنْ ذَراري
عاهَدتُ عَهْدَ الحَنينْ
عهدًا بلا شَكٍ يَمورُ ولا ظُنونْ

عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنْتِ أنتِ ... وأنتِ كُنْتِ لكي تَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ القيْدِ
نَفْسَ النَفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنونْ
فَحَملت دربي فوقَ كتْفي
وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسنونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصنَّفٌ بعض الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ ... هو النعيمُ المُنتظرْ
سافرت فيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يزلْ
قَدَري المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصابِرْ
لَستُ المُغامِرَ إنما عِشْقِي على دَرْبي يُعلمني ويلهِمُني
وَينْبِتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحاصرُ في الشعابِ وفي المَوانِئ والمَغاورْ
عِشْقِي المُقيدُ في السطورِ وفي الصُدورِ وفي الحَناجِرْ

عِشْقي المُكَبَّلُ يُرعِبُ السَّيافَ
والهَتَّافَ
والشَّبَقَ المُقامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَومًا
ولا القَمَرُ المُثابِرْ
وسُراقةُ المخدوعُ لَنْ يُثني جِمالي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ
جَاءتْكِ فَوقَ خُيولِهِمْ
جاءتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ
جاءتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ
جاءتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجِزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخطرْ
سَافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزلْ
سَفَرِي يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ
سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ
سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ
لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ
لا فَرْعَ أُمِّكِ هَابِطٌ
لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبنْ
يا عِطْرَ كُل الأَنْبياءِ المُخْلِصِينْ
يَا زَهْرَ كُلِّ الأَولياءِ المتَّقِينْ

مَنْ قَالَ إسْمُكِ مُمتَهَنْ
مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ
هٰذا حَدِيثُ الإفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ
لِتَشْتَعِل الفِتَنْ
قِديسَةُ الآباءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ
والفَرْعِ الحَسَنْ
قِديسَةُ التُّرْبِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِديسَةُ الرُّؤيا الجلِيلَةِ والأَمَانِي والصُوَرْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأنَا رَفِيقُ رِكابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفي الجنوب
وفِي البَوَادِي والحَضَرْ
وَفوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقاصٍ وَخَالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظيمِ تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ

أَوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْرِي
وَمُهْرِي فَوْقَ ساحِكِ لا يُبالي
بالجنودِ وبالقرودِ وبالذئابِ وبالْحُمُرْ
هٰذَا يَميني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعَهدًا
لَنْ يُزَعْزعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفَرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنَا
ينمو علي لهبِ الطهارةِ والغضبْ
ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ
ولستِ زانِيَةَ العَربْ
إني أُعيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ
فَكُنْتِ جَوْهَرةَ الزَّمان المُرتَقَبْ
إني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ
تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ
إني أُعيذُكِ أن تَهُزي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ
لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ
هٰذي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقْربيها
وارقُبيها عَنْ كَثَبْ
فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِل العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ
فإلى مَتى ؟!

تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى ؟!
لا تَسأليني فَالعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قَابَ قوسٍ واقتربْ
فَلْتُرضِعِيهِ مِن الشرايينِ التي
لَمْ تَأكل الثَّمَرَ المُحَرَّمَ
لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ
فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي
ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ
ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي
ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ
ولم تُدَنْ للمستبدِ أبي لَهَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرابِ
وَلَمْ تُلَقَّنْ مِن مُسَيْلمَةَ الكَذِبْ
فَلتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي
ذَبَحَ الحسينَ
وَلَمْ تَنَم في صَدْرِهَا
نَارُ الجراحِ العاصفاتِ ولا الغضَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ
لِبني قُرَيْظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا
أو أهل يَثْرِبَ أو صَبَاحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسألِيني فَالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقتَربْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هٰذي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السفرْ[1].

الأمير أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقّاص ، خال رسول الله ﷺ ، بطل القادسيَّة ، وفاتح « المدائن » ، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد :

سعدُ بنُ مَالك لَيْثٌ في براثِنِهِ قَدْ قَالَ عمرُ إنَّه الليثُ غَادِيَا

عن جابر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ ، فأقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال النبي ﷺ : « هذا خالي ، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه »[2].

وهو أول من أراق دمًا في الإسلام ؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْيِ جملٍ فشجَّه .

وهو البطل أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله .

قال سعد رضي الله عنه : إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني

---

(١) قصيدة في موقف العشق ، لسعيد المزين ٣٠ يناير ١٩٨٦ المنشورة بمجلة ديوان القدس ، العدد الثاني رجب ١٤٠٦ - مارس ١٩٨٦ ص٥٨ - ٦١ .

(٢) إسناده صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

على الإسلام ، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي . وكانوا وَشَوْا به إلى عمر ، قالوا : لا يُحسن يصلي[١].

قال سعد :

ألا أبلـغ رســولَ اللهِ أني حَمَيْتُ صَحابتي بصدور نُبلي
أَذودُ بها عـدوَّهمُ ذيادًا بكلِّ حـزونة وبكـلِّ سهـلِ
فَمَـا يُعتـد رامٍ مِـن معـدٍ بسهْمٍ يا رسول الله قَبلي[٢]

وهو البطل الذي جمع له رسول الله ﷺ أباه وأُمَّه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرِّجال[٣].

وعن سعد أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه ، قال : كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « ارم فداك أبي وأمِّي » فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل ، فأصبت جبهته ، فوقع وانكشفتْ عورته ، فضحك رسول اللهِ ﷺ حتى بدت نواجذه[٤].

فداك أبي وأمي سعد في يوم « تقذف المشركين بألف سهم »[٥].

وفي الإصابة لابن حجر (٤ / ١٦٣) : قال أبو إسحاق : أشد

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي في « الفضائل » ، وأحمد في « فضائل الصحابة » وأبو نعيم .
(٢) الإصابة : (٣ / ٨٥) ، والاستيعاب : (٢ / ٦٠٧) . والحزونة : هي الوعر من الأرض .
(٣) طبقات ابن سعد : (٣ / ١ / ١٠٠) .
(٤) أخرجه مسلم ، والطبراني في الكبير .
(٥) « أحد » لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٣٨ .

الصحابة أربعة : عمر ، وعلي ، والزبير ، وسعد .

بأبي وأمي من كان له سلاحان : رمحه ، ودعاؤه ؛ فقد كان مستجاب الدعوة .

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال : سمعت سعدًا يقول : قال رسول الله ﷺ : « اللهم استجب له إذا دعاك »[١] .

ولما تجهز الفُرسُ لقتال العرب ، قال عمر بن الخطاب : « واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب » وكتب عمر إلى عماله : « لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إليّ ، والعَجلَ العَجلَ »[٢]. وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش ، فصرفه عن ذلك أهل مشورته ، فجمع عمر الناس ، وقال لهم : « إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا ، فأشيروا عليَّ برجل » ، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن ، فلما وصل كتاب منه – حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه – فقال عمر : وجدته ! قالوا : مَنْ هو ؟ قال : « الأسدُ عاديًا سعد بن مالك »[٣] وقال : « إنَّه شجاعٌ رامٍ »[٤].

وقال عبد الرحمٰن بن عوف : « الأسد في براثنه : سعد بن مالك الزهري » .

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن حبان والترمذي والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الطبري : (٢ / ٦٦٠) ، وابن الأثير : (٢ / ١٧٢) .

(٣) الطبري : ٣ / ٤ .

(٤) البلاذري : صـ ٢٥٥ .

ويستدعي عمر سعدًا ويقول له : « إنِّي قد ولّيتك حرب العراق ، فاحفظ وصيَّتي ، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا ، وعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما أصابك »[1].

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش ، وعبَّأه للحَرب ، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا ، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة ، وولَّى الحروب رجالًا ، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها ، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ ، حتى يحول دون مباغتة العدوّ لقواته .

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية في جيشه ، فعيَّن مسئولًا عن القضاء ، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا ، وعيَّن مسئولًا عن الوعظ والإرشاد ، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية .

ووصل جيش المسلمين القادسية ، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس ، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة ، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة ، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم ، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين : الإسلام ، أو الجزية ، أو السَّيف ، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم .

وتهيَّأ الفريقان للقتال ، وقبْل أن يأذن سعد بالقتال ، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس ، ليحرِّضوهم على القتال ، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال ، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم

---

(١) تاريخ الطبري : ٣ / ٤ - ٥ .

وعرفوا السكينة مع قراءتها[١].

ونادى منادي سعد في جيشه : « أَلَا إنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر اللهِ يَاأَيُّهَا الناس ، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد » .

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد ، فأصابته بِعِرْق النَّسَا ، وبحبون ودماميل منعته من الركوب ، بل حتى من الجلوس ، فلم يستطعْ أن يركب ولا أن يجلس فاعْتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس ، وأسفل منه في الميدان خليفتُه ؛ خالد بن عرفطة ، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه ، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[٢].

وأكبّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه ، فخطبهم وقال : « إن الله هو الحق ، لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف قال جلَّ ثناؤه : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحون** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كلّ قبيلة وعزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم » . ثم قال : « إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون ، فإني

---

(١) الطبري : ٣ / ٤٧ ، وابن الأثير : (٢ / ١٨١ - ١٨٢) .
(٢) الطبري ٣ / ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٧٣ .

مكبٌّ على وَجْهي ، وشخْصي لكم بادٍ ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمري ، ويعمل برأْيي » .

قال الطبري : « فَقُرِئ على الناس فزادهم خيرًا ، وانتهوا إلى رأيه ، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة ، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع »[1].

لك الله أيها « الليث في براثنه » تدير أشرس المعارك .. المعركة الفاصلة ، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك ، وباب دارك مفتوح ، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًّا أو ميتًا .

دامملك تنبح وتنزف ، وأنت عنها في شغلٍ ، فأنت من الشرفة تكبّر ، وتصيح أوامرك لجنودك : « الزموا مواقفكم ، لا تحرِّكوا شيئًا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبِّرٌ تكبيرةً ، فكبِّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأْييدًا لكم ، فإذا كبرتُ الثانية فكبّروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم ، فإذا كبّرت الثالثة فكبّروا ، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فشدّوا النواجذ على الأضراس ، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم ، وقولوا : (لا حول ولا قوة إلا بالله) » .

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذبابِ المترنح .. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار ..!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم – باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا – مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية ، فلقد

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٢ .

صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم ، وأظهروا قدرة قتالية فائقة ، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام ، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قوّاتهم .

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر ، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته ، وما إقامته بالقصر مع ما به من علَّة تمنعه من مباشرة القتال إلّا إفراطًا في الشجاعة ، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي : « ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمّته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه » .

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس ، فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي ؟ وهي تقول :

حيّيتِ عنَّا عكرم ابنة خالدٍ ... وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتك عنِّي عُصْبةٌ نخْعيّة ... حِسان الوجوهِ آمَنوا بمحمدِ
أقاموا لكسْرَى يَضْرِبُون جنودَه ... بكلِّ رقيقِ السفْرتين مهنّدِ
إذَا ثوَّبَ الدَّاعي أَناخُوا بِكَلْكَلٍ ... من الموتِ تسودّ الغياطل مجردِ

وسمع أهلُ اليمامة مجتازًا يغنّي بهذه الأبيات :

وجدْنا الأكثرين بَني تميمٍ ... غداة الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالَا
همُ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهرٍّ ... إلى لجبٍ فزرتهم رعالَا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ ... كأسْدِ الغَابِ تحسبُهم جِبالَا
تَرْكَن لَهُم بقادِس عزّ فخر ... وبالخِيفَيْنِ أيّامًا طِوالَا

.....

مقطَّعــةٌ أكُفّهــم وســوقٌ بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[١]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس فقال : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتالٍ طويلٍ ، وزلزالٍ شديدٍ ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سُلِبُموه ، ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج ، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ ، وفلان وفلان ، ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوُّون بالقرآن – إذا جنّ الليل – دويَّ النَّحْل ، وهم آساد النَّاس ، لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشّهادة إذ لم تُكتب لهم »[٢].

هَلْ دَحَرْنَا في القادسيَّة جَيْشًا بِخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَـرْ
أَمْ بِجَيْشٍ شِعَارُه دون خَـوفٍ لا يَهَابُ الحِمامَ « اللهُ أكبرْ »
مَـزَّقَ الظُّلْـمَ زحفُه يَتَحَـدَّى جَحْفلَ الظُّلْمِ بالعَقيدةِ يَزْخَرْ
عَلَّمَ الفُرْسَ والعروش تهاوى أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[٣]

نعم :

سَلوا فخامة كِسْرَى عن كتائبنا وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا وَكُسِّرتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[٤]

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٣) من قصيدة جواب لسؤال من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٦٤ .
(٤) من ديوان « لحن الخلود » لعائض القرني صـ ٨٣ – طبع هجر .

نعم يا أخي :

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأُسارى

فتح البيت الأبيض :

عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيض ؛ بيت كسرى » . رواه أحمد ومسلم .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لتفتحنّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْز آل كسرى الذي في الأبيض » .

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة ، وكاتبَ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فيما يفعل ، فكتب إليه عمر بالمسير إلى « المدائن » عاصمة كسرى . وتحرّك الجيش المنتصِر باتجاه المدائن ، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في « برس » وفي بابل وفي « بهرسير » . وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة للمدائن ، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن ، فلم يقدر على شيء منها ؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[1] . وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء ، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه ، وموجُه متلاطِم ، وزاد المدُّ فيه ، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا ، وفي ليلةٍ من ليالي سعد ، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة وعبرتْ ، وقد أقبلتْ من المدّ بأمرٍ عظيم .

عبور لا مثيل له في التاريخ :

فصدّق الرؤيا ، وعزمَ على عبور النهر ، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا ،

---

(١) الطبري ٣ / ١١١٩ .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليه معه ، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوِشُونَكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوْا منه ، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام ، وعطَّلُوا ثغورهم ، وأفنوْا ذادتهم ، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعًا : عزمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشد ، فافعل »[١].

وندب سعد الناس للعبور ، ثم قال : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض[٢] لكيلا يمنعونا من العبور » . فانتدب عاصم بن عمرو التميمي ، وانتدب معه ستمائة من أهل النّجدات ، فعبر هؤلاء المغاوير ، وعبر سعد مع جيشه بعدهم ، ففاجأوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في حسابهم .

سبحان الله !! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون .

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم »[٣].

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون ، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض .

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون ، نجاحًا أذهل سعدًا

---

(١) الطبري ٣ / ١١٩ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ ، وفتوح الشام للواقدي ٢ / ١٢٧ .

(٢) الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر .

(٣) الطبري ٤ / ٤٨ .

نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة « سلمان الفارسي » . « عامت بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليّه ، وليُظهرنّ الله دينه ، وليهزمنّ الله عدوّه ، إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات » . فقال له سلمان : « الإسلام جديد ، ذُلِّلتْ لهم والله البحور ، كما ذُلِّلَ لهم البرُّ ، أما والذي نفسي بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا . لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ »[1]. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه ، فخرجوا منه – كما قال سلمان – لم يفقدوا شيئًا ، ولم يغرق منهم أحد ، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة زال عن ظهر فرسٍ له شقراء ، قال أبو عثمان النهدي : كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه ، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقي – وكان من أشدّ الناس – : عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع . وكان للقعقاع فيهم خؤولة .

يوم الجراثيم :

روى أبو جعفر في تاريخه ، أن سعدًا لمّا أقحم الناس في دجلة ، اقترنوا – أي صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور – فكان سلمان الفارسي قرين سعد إلى جانبه يُسايره في الماء ، فقال سعد : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، والماء – لشدّة جريانه – يطمو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا ، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً فيستريح عليها كأنه على الأرض ، فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدعى يوم الجراثيم . ومن عناية الله تعالى بالجيش المجاهد ، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١١ .

إلّا جرثومة يريح عليه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : خُضنا دجلة وهي تطفح ، فلمّا كُنّا في أكثرها ماءً ، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه ، قال المسلمون : ما تنتظرون بهذه النطفة ؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس ، فما غرق منهم إنسان ، ولا ذهب لهم متاع[1].

تموت المبادئ في مهدها ... ويبقى لنا المبدأُ الخالدُ
مراكبُ أهلِ الهوى أُتخمتْ ... نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرّافةٍ ... وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ ... وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم ... فنحن لنا ربّنا الواحدُ[2]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ ، إلّا قَدَح كانت له علاقة رثَّة فانقطعتْ ، فذهب به الماء ، فقال صاحبه : والله إني لعلى جديلة ، ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر . فلمّا عبر ، قذفتِ الرياحُ والأمواج قدحه فأخذه .

ما تُقاتلون إلَّا الجِنَّ :

نظر جنود « يزدجرد » إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة ، وجعلوا يردِّدون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض : « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن » .

قال أبو عثمان النهدي : « طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ حتى ما يرى

---

(١) القادسية لمحمد أحمد بشاميل ٧٤٤ - ٧٤٦ .

(٢) قصيدة موقف من ديوان « شموخ في زمن الانكسار » لعبد الرحمٰن صالح العشماوي صـ ٥ طبع مكتبة الأديب بالرياض .

الماء من الشاطئ أحد ، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها ، لها صهيل ، فلمّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء » .

وفزع يزدجرد ملك الفرس ، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات ..... فدلّاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل .. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طبّاخ وألف فهّاد وألف بازيار .

إي والله ، في زنبيل !! هذه نهاية الطواغيت .

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله ؛ فقد جاء في تاريخ الطبري (٤ / ٥٣) : « أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس ، وفيهم فارس منهم يعترض على طريقٍ من طرقها ، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم ، وهو يضرب فرسه للإقدام فيُحجم ، ثم يضربه للهرب فيتقاعس ، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف ، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه . ودخل سعد المدائن ، وانتهى إلى إيوان كسرى ، فأقبل يقرأ قوله تعالى : ﴿ **كم تركوا من جناتٍ وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكِهين * كذلك وأورثناها قومًا آخرِين** ﴾ [الدخان : ٢٥ : ٢٨] »[1] .

الفاتح العظيم :

وجّه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي ، فانتصر هاشم في معركة جلولاء ، وفتح القعقاع وجرير بن عبد الله البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين .

---

(١) الطبري ٤ / ١٦ .

كما وجّه عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة ، ففتح عبدُ الله بن المعتم تكريت ، وفتح ربعيُّ ابن الأفكل الموصلَ ، ولمّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعدًا أن الفرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان ، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر المسلمون على الفرس ، وفتح ضرار ماسبذان .

ووجّه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، ففتحا هذه المنطقة .

كما وجّه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق ، ففتح منطقة البصرة والأهواز .

كما وجّه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان ، ففتح تلك المناطق .

ووجّه سعدٌ عياضَ بن غنم وسهيلَ بن عدي وعبدَ الله بن عبد الله ابن عتبان لفتح الجزيرة ، ففتحوا منطقة الرّقّة ونصيبين وحرّان والرّها .

فالفتوحات الإسلامية إذن التي جرت في العراق ، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية ، فتحها سعدٌ بنفسه ، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها ، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد ، ولكن فَتْحهَا جرى بعد عزله .

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا . لقد فتح سعد العراق ، وأكثر بلاد فارس ، وأذربيجان ، والجزيرة وبعض أرمينية ، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث ، وأكثر إيران بحدودها اليوم ، وفتح

القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإيران ، والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحدّ روسيا . وفوق ذلك مَصَّر الكوفة وكوَّفها ، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله ، وأمدّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين .

فرضي الله عن سعد الفاتح العظيم .

وأخيرًا تبقى كلمة :

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[١] ، أسد في تامورة[٢] ؛ يعدِل في القضية ، ويقسم بالسَّوِيَّة ، ويبعد في السَّرِيَّة ؛ يعطف علينا عطف الأُمِّ البَرَّة ؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة »[٣].

خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، سيف الله تعالى وفارس الإسلام ، وَلَيْثُ المَشَاهِد ، السيد الإمام الكبير ، قائد المجاهدين ، أبو سليمان :

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأُصيب ، ثم أخذ جعفر فأُصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم[٤].

---

(١) كساء فيه خطوطٌ بيض وسود ، تلبسه الأعراب .

(٢) التّامور : هو عرين الأسد ، وهو بيته الذي يأوي إليه .

(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٩٢ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٦٨ .

(٤) رواه البخاري والنسائي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي .

« عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أُصيب فجعفر ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري » . فوثب جعفر فقال : بأبي أنت يا نبي الله وأمي ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيدًا ! قال : « امضوا ، فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » . قالَ : فانطلق الجيش ، فلبثوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله ﷺ صَعِدَ المنبر وأمر أن يُنادى : الصلاة جامعة ، فقال رسول الله ﷺ : « تاب خبر - أو ثاب خبر . شكَّ عبد الرحمٰن - ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؟ إنهم انطلقوا حتى لَقَوُا العدوَّ ، فأُصيب زيدٌ شهيدًا ، فاستغْفِرُوا له » فاستغفر له الناسُ « ثم أخذ اللواءَ جعفرُ ابن أبي طالب ، فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيدًا أشهدُ له بالشهادة ، فاستغفِرُوا له . ثم أخذ اللِّواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا ، فاستغفروا له . ثم أخذ اللِّواء خالد بن الوليد ، ولم يكُن من الأمراء ، وهو أمَّر نفسه » فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال : « اللهم هو سيفٌ من سيوفك فانصُرْهُ » . وقال عبد الرحمٰن - مرةً - : « فانتصر به » . فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « انفروا فأمِدُّوا إخوانكم ، ولا يتخلفنّ أحد » . فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا »[1].

لمَّا أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ : « ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها » . وقال النبي ﷺ : « اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك » .

قال خالد : فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بي

---

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد ، والنسائي في فضائل الصحابة .

أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه .

وفي رواية : فيما كان حَزَبَه . وفي رواية عمرو : في أمرِ حَرْبِهِ[١] .

في مؤتة :

كانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه ، وبعد قتْل قادة الجيش الثلاثة ، وانكشاف صفِّ المسلمين ، دَفَعَ ثابتُ بن أقرم اللِّواء إلى أبي سليمان خالدٍ قائلًا : « خذ اللواء يا أبا سليمان ، فأنت أدْرَى بالقتال مني ، والله ما أخذتُه إلا لك » .

تلقَّى خالد اللواء ، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف .. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة .. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل ، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه ، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا ، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب .

« واعتلى العبقري جوّاده ، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام ، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح ، على طريق طويل لَاحِب سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته ؛ حتى تبلُغ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا »[٢] .

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة ... فقد قام بتبديل كلِّي في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه ، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة ، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة ، كما استبدل

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ / ٢٥٢ ، ٧ / ٣٩٤ .

(٢) رجال حول الرسول صـ ٣٠٩ .

رجال القلب برجال آخرين ، كل هذا في ظلام الليل ، وجعل مقدمة الجيش ساقةً ، وساقته مقدمةً ، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة ، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب ، نَشَر هذه الساقة ليحتلّ فرسانها مساحةً شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية ، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة . كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا ، قد جاء لجيش المسلمين . هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذّ ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقق . فقد وجد الرومان أنفسهم – أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع – أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأُولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية . ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد ، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي ، ودوَّتْ أصوات التهليل والتكبير ، منبعثةً من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق ، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان ، تتبع إحداهما الأُخرى في تنسيقٍ وإحكامٍ راكضةً نحو المسلمين في مؤتة ، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة ، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير ، واهتزّ معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير . ودبّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج ، ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة ، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد ؟!

نعم ، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة ، هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة .

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ ، نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة ، فاغتنمها فرصةً ،

فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان ، وبأسلوب عامّ صاعِق كاسِح فتمَّ له ما أراد .

« وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية ، وركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة ، كانت بكل معاني الكلمة « مذبحة » وَصَفَهَا الواقدي في كتابه « المغازي » بقوله : « فرُعِبوا فانكشفوا منهزَمين ، فقتلوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ »[١].

وقال ابن سعد في طبقاته : « ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتُها[٢] قطُّ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا »[٣].

كان القتال ضاريًا ، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ ، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية »[٤].

لله دَرُّك يا خالد ، تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك !! ومن أوْلى منك بهذا .

أناضل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا

---

(١) مغازي الواقدي ٢ / ٧٦٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس – طبع جامعة أكسفورد .

(٢) الرواي هنا أحد الصحابة وهو أبو عامر .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ١٣٠ ، مؤتة لمحمد أحمد بشاميل صـ ٢٠٧ .

(٤) رواه البخاري ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك .

ومُمْتَثِـــل لله أسْـــلَمَ وجهَـهُ يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالدُ سيفُ الله أسلم وجهَهُ يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فلم أرَ يومًا كالتقـدُّم لـذَّةً ولم أرَ عيشًا كالتقـدم هانيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي وتحت روابيها تصبّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام ، فقد انسحبت قوات القسم الأكبر[1] من المسلمين ، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا ، وذهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة ، وما استطاعوا أن يتعقّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل ، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة ، فلمّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة (الجرف) ، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش « يا فُرّار .. فررتم » ... ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب . وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ليسوا بفُرَّار ، ولكنهم الكرّار في سبيل الله » . وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة .

ثم علم المسلمون بعدُ قدْر تضحية خالد وبذْله ، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان .. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع ، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا ، وأروع عبقريةً وأنْفَذ بصيرةً ؟!

في فتح مكة :

قال النبي ﷺ للزبير وخالد : « لا تقاتلا إلَّا من قاتلكما » . وكان خالد على ميمنة قوات المسلمين ، وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها

---

(١) القلب والميمنة والميسرة والمقدمة كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب .

من « اللِّيط » ، إلّا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة ؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة ، وكما قال خالد : « بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنَّبل ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففتُ ما استطعتُ ،ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم ، فظفَّرنا الله بهم ، فهربوا من كل وجه »[١]. وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا .

يقول ابن حماس الدّيلي فارسُ مكة ، لما عاتبتْه زوجُه على فراره في الخَنْدَمة :

وأنتِ لو شهدتِنا بالْخَنْدَمَهْ ... إذ فَرَّ صفوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ كالعجُوزِ المُؤْتِمَهْ[٢] ... إذ يلحقونا بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ
لهمْ زئيرٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لم تَنْطِقِي في اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[٣]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصّاهلة ، وتحت رايات الإسلام الخافقة ، وتكبيراتهم الصّادِعة الرائعة ، ترجّ مكة رجًّا ، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة ، يبدو الكون معها ، وكأنه كلّه في عيد .

خالد يقتل العُزَّى ويهدمها :

وهذا البطل مرة أخرى يستبدّ به تَوْقٌ عارِم إلى هدم عالمه القديم كله ، ومظاهر الشرك ، فعن أبي الطُّفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٩ .
(٢) هي المرأة التي قُتل زوجها فبقي لها أيتام .
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٥٠ ، ومغازي الواقدي ٢ / ٨٢٧ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٩٧ .

وآله وسلم مكة بعث، خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العُزَّى ، فأتاها خالد بن الوليد،وكانت على تلال السَّمُرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع فإنك لم تصنع شيئًا » . فرجع خالد ، فلمّا نظرتْ إليه السَّدَنةُ – وهُمْ حُجَّابُها – أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عُـزَّى خَبِّليه ، يا عزى عَوِّرِيه ، وإلَّا فموتي برغم . قال : فأتاها خالد ، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تحثو التراب على رأسها ، فعمَّمها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره قال : « تلك العزى »[1].

وفي رواية : فلما سمع سادِنُها بمسير خالدٍ إليها ، علّق عليها سيفه ، والتجأ إلى الجبل الذي هي فيه وهو يقول :

أيا عُزّ شدّي شدّةً لا شوًى لها[2] على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تنصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عُـزّ كُفـرانك لا سبحانكْ إني رأيـتُ الله قـد أهـانكْ

وعند الطبري (٣ / ٦٥) :

يا عُزّ شُدِّي شدَّةً لا سِواكِها على خالدٍ أَلقِي الخمارَ وشَمِّرِي
فإنَّك إن لا تَقْتُلي المرءَ خالدًا تبوئي بذنبٍ عاجـلٍ وتُقَصِّـرِي

فشد خالد عليها ، فقتلها ، وقال : ذهبت العزى ، فلا عزى بعد اليوم .

---

(١) حسن . رواه أبو يعلى في مسنده (٢ / ١٩٦) . وهو حسن .
(٢) أي لا تُبقي على شيء .

هَدم خالدٍ لِوُدّ :

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام ، فقد « بعث النبي ﷺ خالدًا لهدم « ود »[1] في دومة الجندل ، وقد بعثه من غزوة تبوك ، فحالتْ بنو عبد ودّ وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم خالد ، وبعد دحرهم هدمه وكسّره جذاذًا »[2].

أسْرُه لأُكَيْدِر صاحب دومة الجندل :

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك ، أرسل خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبد الملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب « دومة الجندل » ، وكان أُكيدر قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان ، فهاجمته خيل خالد ، فاستأسر أُكيدر ، وامتنع أخوه وقاتل حتى قُتل ، ثم هرب من كان معهما ، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ ، على أن يفتحوا له دومة الجندل ، فدخلها المسلمون ، وصالحه خالد على ألفيْ بعيرٍ وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه « مصاد » قافلًا إلى المدينة ، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ، ودم أخيه ، وخلَّى سبيلهما ، وكتب له كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه .

لله دَرُّ خالدٍ .. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات ، بينما قاتل شمالًا على حدود أرض الشام ، وجنوبًا في اليمن ، وشهد أحد عشر مشهدًا ، قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء

---

(١) تمثال رجل كبير الجسم ، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل .

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٠ ، نقلًا عن « خالد بن الوليد » لأبي زيد شلبي صـ ٨٦ - ٨٨ .

الرسول القائد ﷺ ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًّا ، ولم يُقاتل في خمسة مشاهد منها ، بل أنجز واجبه سِلمًا ، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال !!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ ، وكانت له قابليّات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة لا يجود بها الزمان إلا نادرًا ، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه : « نعم عبد الله وأخو العشرة ، وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين »[1].

خالد وحروب الرِّدَّة :

لقد كانت حروب الردة – التي استمرت ملتهبةً حوالي سنةً كاملة – أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري ، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال ، وخالد بن الوليد لم يقم أي محاربٍ مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم ، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة « بزاخة » ببلاد بني أسد ، ومنطقة البطاح في ديار بني تميم ، ومنطقة اليمامة موطن بني حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد في حياته .

مع طليحة في بزاخة :

التقى خالد مع طليحة الأسدي في بزاخة ، فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا ، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه ، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : « يا معشر فزارة ، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته ، فليفعل » . وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة . ولقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبني عامر وسُليم وهوازن ، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام ،

---

(١) الاستيعاب ٢ / ٤٢٩ ، وقادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٤ ، ٩٥ .

ولم يقبل منهم إلَّا أن يأتوه أوّلًا بالذين حرّقوا ومثّلوا وَعَدَوْا على الإسلام ، فأتوْا بهم ، فمثّل بهم وحرّقهم ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار[١].

في اليمامة مع مسيلمة الكذّاب :

بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيلُ بن حسنة في القضاء على المرتدين في اليمامة ، سار إليها خالد ، فلمّا كان على بُعْد ليلةٍ من معسكر مسيلمة ، هجم على مفرزة من بني حنيفة بإمرة « مجاعة بن مرارة الحنفي » قوّتُها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا ، فأسرهم وقتل أصحاب « مجاعة » ، واستحياه رهينةً لشرفه في بني حنيفة . والتقى الجمعان في عقرباء ، واشتدّ القتال ، وتكسّرت في يد خالد تسعة سيوف ، واشتدّ القتال بشكلٍ لم يسبق له مثيل ، وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد ، ولكنّ المسلمين عادوا فاستقتلوا ، فقال خالد : « يَـٰأَيُّهَا الناس ، امتازوا ؛ لنعلم بلاء كلِّ حيٍّ ولنعلم من أين نُؤتى » . وكان النصر بعد جهدٍ جهيدٍ لأنصار دين الله ، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر ، وقُتل من بني حنيفة في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا ، وقُتل منهم في الطلب سبعة آلاف[٢] ، وقُتل عدو الله مسيلمة ، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار ، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة ، وثلاثمائة من التابعين ، وقتل من القُرّاء خمسمائة ، فكان جملة من قتل من المسلمين ألفًا ومائتي شهيد ، أي أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط ، وهذا يعدُّ من أروع الانتصارات .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٣ .

(٢) الطبري (٢/ ٥١٦) ، وابن الأثير (٢/ ١٤٠) .

فللّه درُّك يا خالد وأنت تريد قتل مسيلمة ، وما تطلب من الفرسان حين تشدُّ عليه إلّا حماية ظهرك فقط ، وتقول : « لا أُوتينّ من خلفي » . فلا يثبت لك الكافر .

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا .. ولله دَرُّ أبي بكر حين قال فيك : « ما كنتُ لأَشِيمَ سيفًا سلَّه الله على الكافرين »[1].

هازم الفرس في أرض العراق :

« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد » . [الصديق أبو بكر] .

لقد كان خالد قائدًا لا يُجارَى ولا يُبارى في خططه وأسلوب قتاله وشجاعته ، وأُقسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال ، وله في كل معركة ذكْر ونبأ تطير بذكره الرّكبان .

كاظمة ميدان المعركة الأولى مع الفرس :

وفيها كان قائد قوات الفرس « هرمز » ، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه « ازاذبة » وكان نص رسالة خالد الخالدة : « أمّا بعد ، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّة وأقرر بالجزية ، وإلّا فلا تلومنّ إلَّا نَفْسَكَ ، فقد جئتُك بقومٍ يحبّون الموتَ كما تحبون الحياة » . وفي رواية : « جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ كما تحبون شُرب الخمر » . قد كان ابن الوليد قمة في سياسته العسكرية ، وقدرته على المناورة وخداع العدو ، لإنزال الهزيمة به بأقلّ خسارة ممكنة في جيش الإسلام ، فتوقّع هرمز أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى كاظمة في أول الأمر ، فوجّه كافة قواته إلى كاظمة ، واستعدّ جندُه وحفروا الخنادق ، ولكن خالد الذي قسم جيشه وفرّقه إلى ثلاث فرق ،

---

(١) الطبري (٢ / ٥٠٣) ، وابن الأثير (٢ / ١٣٧) .

لم يحملهم على طريق ليُعمِّي وجهته عن عدوه ، فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة ، وأربك خالد القائد الفارسي وفتّت أعصابه ، فتخطّى كاظمة ، واتجه نحو الحفير الواقعة شمال كاظمة وغربي الأبلَّة . وعندما لم يجد هرمز أي أثرٍ لخالد في كاظمة ، وأنه تخطَّاها نحو الحفير ، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد ، وأمر هرمز قواته بأن تُجهد نفسها في التّحرّك ؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير ، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذُّ خالدٌ ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة ، وعن عمدٍ تباطأ خالد بجيشه في السير نحو الحفير ليسبق إليها القائد هرمز ، وفعلًا وصل هرمز الحفير على عجلٍ ليسبق إليها خالدًا ، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير استعدادًا لمواجهة خالد ، ولما تلقّى خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال ، عطف بجيشه راجعًا إلى كاظمة ، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس – بعد حفر الخنادق في الحفير – قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل ؛ توطينًا لأنفسهم على الموت ، أو إحراز النصر ، ولما أبلغتْ هرمز استخباراتُه أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو الكاظمة راجعًا ، استشاط غضبًا وتوتّرتْ أعصابه للغاية ، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو كاظمة ، وهناك وجد خالدًا في انتظاره ، قد عبَّا جيشه للقتال ، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين ، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات ، ومنعوهم الماء ، فقال خالد كلمته الخالدة : « ألا انزلوا وحطّوا رحالكم ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصْبر الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن »[1]. ودعا هرمز خالدًا للبِراز ، وسرعان ما أجابه خالد ، ولكن هرمز الخبيث – الذي ضُرب به المثل فيه فقيل : أخْبَثُ من

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٤٩ .

هرمز ، وأكفر من هرمز – قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد ، فلما نزل خالد نزل هرمز ، ومشى إليه خالد ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتيْن ، واحتضنه خالد ، **وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ ، فاسْتلْحموا**[1] خالدًا ، **فما شغله** ذلك عن الهرمزان ، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز ، فأبادها جميعًا ، أمَّا خالد فقد تمكّن في الحال من ذبْح هرمز ذبح النِّعاج ، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم ، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل ، ولم ينجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن ، وجمع خالد الرثاث[2] وفيها السلاسل ، فكانت وقر بعير ؛ ألف رطل ، فسُمِّيَتْ « ذات السلاسل » ونفَّل أبو بكر خالدًا قلنسوةَ هرمز ، وكانت قيمتها مائة ألف . وقدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس إلى المدينة ، فطيف به في المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن : أَمِنْ خلْق الله ما نرى ؟! وردَّه أبو بكر مع زر .

وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك :

نعم ، الإسلام رفع من شأن العرب ، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً ، لا شأن لهم في الأرض ، ولا ذِكْر لهم في السماء ، أذلَّهم الفرس ، حتى إنَّ سابور الثاني والملقّب بذي الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب ، فيقتلهم عن طريق نَزْع أكتافهم ، فنزع أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل ، حتى قالت له عجوز عربية : « إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين » . الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب ، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس ، يُذِلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم ...

---

(١) تبعوه .

(٢) المتاع .

حتى صار ذِكْره يُقضُّ مضاجع الفرس .. ويبدو هذا في معركة الأُبُلّة .

معركة الأُبُلَّة ، وفرار الفرس من اسم خالد :

سار خالد بجيشه إلى الأُبُلَّة ، وفيها جيوش كثيفة للفرس ، وسبق سويد بن قطبة الذهلي – وكان من جيش خالد – في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه الأبلة ، وعسكر حولها ، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم ، وجد سويدًا يتعقّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه ، فيُقاتلهم خارج مدينتهم ، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه ، وأنهم سيظلّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر ، فقال سويد لخالد : إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك ؛ أي خوفًا منك . وهناك رسم خالد بالاتفاق مع سويد خُطّة يخدعون بها الفرس ، حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد ، وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله هرمز ، قد ترك معسكر سويد ، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط ؛ فقال خالد لسويد : فالرأْي أَخْرُجُ من المعسكر نهارًا ، ثم أعود إليه ليلًا ، فأدخل بأصحابي ، فإن صبّحوك حاربناهم ، ونفّذ خالد خطّته لتضليل حامية الأُبُلَّة الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد ، فتوجّه خالد بمعظم قوّاته في وضح النهار في اتّجاه الحيرة ، فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان ، وعاد – رضي الله عنه – بقواته إلى المعسكر ليلًا ، فلمّا خرجت جيوش الفرس من الأُبُلَّة قاصدين مهاجمة سويد ، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد ، حتى رأَوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد ، فأُسقط في أيديهم لمَّا علموا بوجود خالدٍ في المعسكر ، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد ، وما كان همّهم إلَّا الفرار للعودة إلى الأُبُلَّة المحصَّنة ، فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة ، ولكنّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك ، وانفرط عقد جيش

الأُبُلَّة ، وتمزّق شملهم ، وكثُر القتل فيهم ، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالدٌ معقل بن مقرن المزني إلى الأُبُلَّة التي كانت خاليةً من المحاربين ، فسيطر عليها بدون قتال ، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة .

الخـربية :

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها : الخريبة ، وكانت من مسالح العجم ، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ، لمّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم ، وأدرك الرعب المسيطر عليهم : « احملوا عليهم ، فإني أرى هيئة قومٍ ألقى الله في قلوبهم الرعب » . فحملوا عليهم ، فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرق طائفة منهم في دجلة .

الجولة الثالثة : معركة المذار وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة :

جهّز شيرويه ملك الفرس جيشًا جرّارًا ، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قوّاده وهو « قارن بن قرباس » يسانده قائدان كبيران وهما : «الأنوشجان » و« قباذ » ، وكان هذا الجيش يضم أيضًا فلول الأُبُلَّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل ، وتعاهدوا بعدم الفرار .

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا ، بينما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا . وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة قارن إلى البزار ، فاستبق إليه اثنان من المسلمين : خالد بن الوليد ، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي ، فسبق معقل على فرسه خالدًا ، وبارز قارنًا فقتله في الحال . وهجم عاصم بن عمرو على الأنوشجان فقتله في الحال ، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد قباذ فقتله ، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن ، وكان شرف قارن قد انتهى ؛ أي

أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس . وقُتل من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا ، سوى من غرق في دجلة بحديده . « ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم ، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة »[1] .

الوجلة أو (واترلو الفرس) :

أقام خالد – رضي الله عنه – بمنطقة المذار يجمع المعلومات ويرقب اتجاه مسارات العدو ، وعلم أن القيادة العامة في المدائن أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مجرّبيْن وهما : « الأندرزغِر » و« بهمن جاذويه » . وأراد بهمن جاذويه أن يوقع خالدًا بين فكّيْ كماشةٍ ، إن هو اتّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا : بين جيش الأندرزغر الذي يعسكر غربًا في الوجلة ، وبين جيش بهمن الذي يتحرك في السواد شرقًا ، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة ، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين . وفكر خالد – وهو الألمعي – في اتّباع أسلوبٍ يجعله يتصل بالأندرزغر في الوجلة ، دون أن يوقع بجيشه في كمّاشة ، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة ، حتى إذا ما وصل الأُبُلَّة عَبَرَ نحو الغرب ، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو الوجلة غربي الفرات حيث يعسكر الأندرزغر . لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم ، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها ، ورغم أنه محارب جريء ممتاز ، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور ، وكان شديد التَّيقُّظ والحذر ، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم . ولكي يختصر خالد المعركة ، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله ، أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينيْن من خيرة رجاله ، كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه بسر بن أبي رهم الجهني ، وكمين من يسار الفرس وجعل على

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٥٢ .

قيادته سعيد بن مرة العجلي ، وأخفى الكمينيْن ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس ، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينيْن تجعل جيش فارس بين فكّيْ كمَّاشة ، مع انشغاله بالرمح المُشْرَع في صدره وهو جيش خالد ، وأُعْطِيت الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما

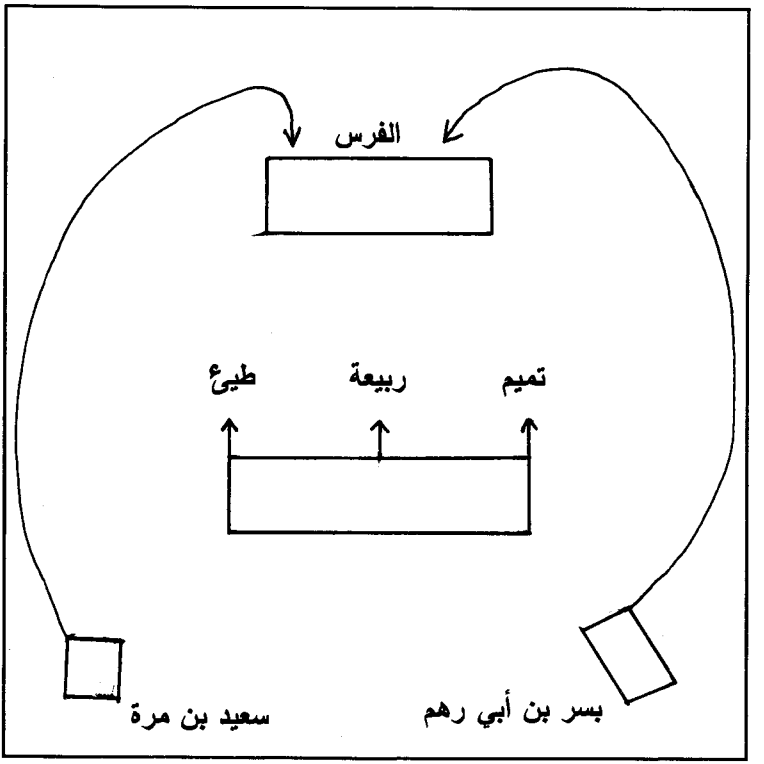

يحتدم القتال ، وتظهر بوادر الوهن على الفرس . واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات « أندرزغر » في قتالٍ ضارٍ عنيفٍ ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقّى أحدهما مدده قبل الآخر ، واشتدّ القتال في الولجة ، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة ، وظنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه ،

فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب ، ثم شكَّلا رأس حربتين إذ انقضّا على جيش الفرس من وراء ظهره ، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق ، ينتظر أن يظهر عليه بهمن جاذويه فينقذه . وأُسقط في يد الفرس ، وانتابهم الذعر ، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس ، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه ، ومضى الأندرزغر في هزيمته إلى مجاهل الصحراء فمات عطشًا .

وتعلّم الغرب من خالد .. فهذه معركة « واترلو » التي دارت في بلجيكا بين نابليون بونابرت ، وبين قائد جيوش الحلفاء « ولنجتون » الإنكليزي عام ١٨١٥ ، وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد « بلوخر » وجيشه ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من النصر ، واستقال من منصبه ، ودخل الحلفاء باريس ، ولجأ نابليون إلى انجلترا ، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا ، بل عدّته أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة .

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة ، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات ، فقال : « ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب[1] ، وبالله لو لم يُلزمنا الجهادَ في الله والدعوة إلى الله عزّ وجلّ إلَّا المعاشُ ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونُولّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه ممَّن اثَّاقل عمّا أنتم عليه »[2].

معركة أُلَّيْس أو « نهر الدم » ؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس :

حَقَدَ نصارى العرب وهم من تغلب وبكر بن وائل على المسلمين بعدما أصابهم في الوقعة ، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدّهم بجيش فارسي ؛

---

(١) أي كثير التراب .

(٢) تاريخ الطبري (٢ / ٥٥٩) ، وابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه ، وكان على العرب في أُلَّيْس عبد الأسود العجلي ، ووصل « جابان » على رأس جيش كثيفٍ من الفرس ، وتولّى جابان القيادة العامة ، وكان عبد الأسود قائد خليط نصارى العرب ، وهم من بكر بن وائل وبني عجل ، وتيم اللّات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية . وصل خالد بجيشه ، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء ، وقد وُضع الطعام الفاخر على البُسُط ، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب ، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا ، فلم يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم ، فقال لهم قائدهم جابان : « اتركوا الطعام ، واستعِدُّوا للصدام » . فلمّا عصوْه قال : « إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام ، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلًا منكم » . فعصوه ، وبسطوا البُسُط ، ووضعوا الأطعمة ، ودعا بعضهم إلى بعضٍ ، وتوافوا إلى البُسُط ، وزحف خالد والمسلمون ، فأجبروا الفرس على القيام عنه ، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه . ودعا خالد للبراز ونادى « أين أبجر بن عبد الأسود ، أين مالك بن قيس ؟ » . فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس ، فإنه خرج إلى خالد ، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتَقِرًا : « يا ابن الخبيثة ، ما جرَّأك ؟! لستَ لي علّي من بينهم ، وليس فيك وفاء » . أي أنك لست لي بكُفْءٍ . ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال . ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق ؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالدٍ ؛ لقتله ابْنَيْ زعيميْهم في الولجة ، وصبر الفرس صبرًا شديدًا ، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً ، حتى شقَّ عليهم الأمر ، قال خالد : « ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس ، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس » . ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا

من دمائهم إنْ مَنَحَهُ الله النصر عليهم ، فقال : « اللهم إنّ لك عليّ إن منحتَنَا أكتافهم ، ألّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم » . وانتاب الفرس والنصارى الذعرُ والخوفُ عندما رأوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم ، وركنوا إلى الفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، ونادى منادي خالد حتى يفيَ بنذره : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلّا مَنْ امتنع . فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام ، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر ، فوكّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً ، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم ، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ : لو أنك قتلتَ أهل الأرض ، لم تُجْرِ دماءهم ، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ ، فيجري النهر دمًا لتبرّ بيمينك . فعمل خالد بمشورة القعقاع ، وأُعيد الماء إلى النهر ، فجرى أحمر قانيًا ، فسُمِّي لذلك : نهر الدم ، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة . قالوا : وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء ، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا – أو يزيدون – ثلاثة أيامٍ ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط ، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا ، أكثرهم من أهل « أمغيشيا » ، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق ، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات ، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ ، فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته ، ولا نظير له في عسكريته .

أعَجَزَتِ النِّساءُ أن يُنشِّئن مِثْلَ خالدٍ :

قال الصِّدِّيق في خالد – وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس –: « يا معشر قريش ، عدا أسَدُكم على الأسدِ ، فَغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء

---

(١) أطايب اللحم المقطّع الوافر ، وخردل وخرذل بمعنى واحد .

أن يُنشّئن مثل خالد !! » .

« يوم أمغيشيا » نَصَرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب :

كانت أمغيشيا أعظم وأهمّ من أُلَّيْس ، وكانت على بُعْد أربعين كيلو مترًا من أُلَّيْس ، فتملَّكهم الرعب ، وفرَّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد ، وتركوا وراءهم كل شيء قال ابن جرير : « لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس ، نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عمّا فيها ، وقد هرب أهلُها ، وتفرّقوا في السَّواد ، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها ، وكانت مِصْرًا كالحيرة . ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا ؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء » .

معركة المقر واستسلام الحيرة :

قدّر صاحب الحيرة ومَرْزُبانُها (أزاذيه) أن خالدًا لن يتركه ، وأنه سيركب إليه النهر ، فقدَّم ابنه ، وأمره أن يسدّ قناطر الفرات ، ويفتح للروافد التي تمدّه مسالك جديدة ، حتى يجفّ النهر وتتوقّف السفن عن الحركة . وكان خالد قد قسّم جيشه إلى قسمين ؛ القسم الأول : وهم المشاة تحملهم السفن مع المُؤَن . والقسم الثاني : وهم الفرسان وراكبوا الإبل . وسارت السفن شمالًا ، ولم يَفْجَأ المسلمين إلا السفن جوانح ، ولم تفُتّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون : أن الفرس قد فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة ، فباغتَ خيلَهُ وهم على فم العتيق – مَصَبّ الفرات الأصلي – وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة ، فاقتتلوا بموضع المقر – فم العتيق – حتى هزمهم بعد أن قتل ابن صاحب الحيرة ، وأعاد الماء يجري في النهر ، فعادت سفن المسلمين إلى المسير ، وقصد خالد الحيرة ، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها،بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها ، فعسكر خالد بين

« الغريين »[١] والقصر الأبيض ، وأجال خيله في عَرَصَاتهم ، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدّيرات ، وأكثروا القتل ، فنادى القسّيسون والرّهبانُ أهلَ الحصون : يا أهل القصور ، ما يقتلنا غيركم !! فنادى أهلُ القصور : يا معشر العرب ، قد قَبِلنا واحدةً من ثلاثٍ فكفُّوا عنّا . وفاوضوا خالدًا ، وأقروا بدفْع الجزية مائة وتسعين ألف درهم ، تُقبل كل سنة ، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولِّي اللهِ خالدٌ يشرب السُّمَّ فلا يضرُّه ، ويتعجَّب منه ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب :

عن قيس : أُتِي خالدٌ بِسُمٍّ فقال : ما هذا ؟ قال : سُمّ . فَشَرِبَهُ[٢].

وفي أُمّهات كتب التاريخ : أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب ، ومعمّرهم وأرجح قومه عقلًا ، لمّا دخل على خالدٍ ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه ، فتناوله خالد وقال : ما في هذا الكيس ؟ ونشر ما فيه في راحته ، ثم قال : ما هذا يا عمرو ؟ فقال عمرو : هذا والله سُمُّ ساعةٍ . فقال خالد : وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ ؟- وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة – قال عمرو : خشيتُ أن تكون على غير ما رأيتُ من العَدْل ، وقد أتيتُ على أجلي[٣] ، والموت أحبُّ إليَّ من مكروهٍ أُدخله على أهل قريتي . فأخذ خالد السُّمّ المذكور ، وتلا هذا الدعاء : « إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض والسماء ، الذي لا يضرّ مع اسمه داء ، الرحمٰن

---

(١) بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة .

(٢) صحيح . رواه أحمد في « فضائل الصحابة » ، والطبراني في الكبير .

(٣) وكان سِنُّه عند التفاوض ثلاثمائة وخمسون سنة .

الرحيم » . ثم وضع السم في فمه ، وبادروه ليمنعوه ، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه ، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا ، فمضت ولم يضرّ السم خالدًا ، كيف لا وهو من أكابر أولياء الله المتقين ، وسيد المجاهدين في الشام والعراق ، فقال عندها ابنُ بقيلة : « والله يا معشر العرب لتملكُنَّ ما أردتم » .

أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية :

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة ، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين ، خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين .

إعجاز عسكري : فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا :

لله دَرُّكَ يا خالد .. تمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال أربعين يومًا عام ١٢ هـ ، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول ، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش ، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات ... فَبُورِكَ زَنْدُكَ وبورك ساعدُك ، وبورك سيفك ورمحك ، وبورك جوادك ، وبوركتْ همَّتُك أعلى الهِمَم وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها .

معركة الأنبار وفَوْءُ ألفِ عَيْنٍ من الكفار :

سار خالد إلى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وكان من شجعان البادية ، فلمّا بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها ، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا ، وأشرفوا من حصونهم ، فأنشب خالدٌ القتال ، وكان قليل الصبر عنه ، وتقدَّم إلى رماته ، فأوصاهم قائلًا : « إني أرى أقوامًا لا علْم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ، لا توخّوا غيرها ، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تابِعُوا » . وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها ، ثم

تتابعَ الرَّمْيُ ، فأُصيب الرّماة من العدوّ الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ ، إذ فقأتْ سهام المسملين منهم ألفَ عينٍ ، ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار « ذات العيون » . واضطرب أهل الحصن وماجوا متصايحين : ذهبت عيون أهل الأنبار . وراسل مَرْزُبان الأنبار « شيرا زاد الفارسي » خالدًا بشروطه التي رفضها خالد ، وقرر خالد أن يردم الخندق ، ولكن بماذا ؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف ، ويقذفوا بها في نقط الخندق الضيِّقة حتى تطمرها ، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة ، ونجحت الحيلة ، واستقام الجسر اللحمي ، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار ، واستسلمت الأنبار لخالد .

خالد يختطف القائد العامَّ للنصارى من قلبِ صَفِّهِ في معركة عين التَّمْر ويأسره أوَّلَ المعركة :

كان على عين التمر « مهران الفارسي » في جمعٍ عظيم من العجم والعرب ، وكان على العرب عقَّة بن أبي عقة ، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم ، قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فَدَعْنَا وخالدًا » . قال : « صدقت ، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب » . وكانت قوات عقّة في العراء ، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد على تعبيةٍ ، فقال لجنبتيْه : « اكفوني ما عنده فإني حاملٌ عليه » . ووكّل بنفسه حوامي ، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله ، ولكنْ بأخْذه أسيرًا ؛ كي يفهم ذلك المغرور أيّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون ، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم .

قد كان المتَّبع في الحروب المبارزة ، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة ؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه . وانقضَّ خالد على عقّه كما ينقضُّ الصقر على فريسته ،

وعقّة مشغولٌ بتسوية صفوف جيشه ، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم ، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة !! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم ، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه ، ثم يحمله ويعود به حيًّا – كالبرق – أسيرًا إلى صفوف المسلمين . وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي ترى انتزاعَ خالدٍ لعقّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ ، ما كان أحدٌ يتوقّعه ، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه كأنه طفل رضيع ، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة ، واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه ، فلاذوا بالفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، وقد كثُر من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة ، وهرب الباقون ودخلوا حصن عين التمر ، ونجا القائد الفارسي مهران ، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة . وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا . وفتح خالد عين التمر بعد أن نزلوا على رأي خالد ، فقتل خالد مُقاتلتهم ، وبدأ بعقّة فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر ليكون عبرةً لغيره ، ثم أعدم نائبه ، وعمرو بن الصعق ، ثم نفّذ حكم الإعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه ممَّن تحصَّن بعين التمر ، وسَبَىٰ النساء والذَّرارِي .

لله دَرُّكَ يا خالد .. « لا أَحَدَ أَيْمَنُ طائرًا منك ، ولا يرى قومٌ وجه خالد – قلُّوا أو كثُروا – إلَّا انهزموا أمامه » . هذا قول ملك دومة الجندل أُكيدر ... والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

ولله دَرُّ فارسنا حين يبعث إلى عياض بن غنم : « من خالد إلى عياض ، إياك أريد » .

لَبِّثْ قليلًا تَأْتِكَ الحَلَائِبْ يَحْمِلْنَ آسادًا عليها القاشبْ
كتائب تتبعُها كتائِبْ

خالد صاحب المفاجآت ومعاركه اللَّيْلِيَّة :

قد كان خالد من طرازٍ نادر ، فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك ، إلا أنه يمتاز أيضًا بسرعة التنفيذ وحُبّ المخاطر ، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليب مُفاجِئة للعدو ، ولا أضَرَّ على الجيوش - وإن كانت عظيمةً - من أن تتعرَّض للهجوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ وهي على غير استعداد . فمشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، كانوا ينفرون من القتال الليلي ، ويذهبون إلى عدم جدواه ، ويقرّر « فردريك الأكبر » أنه يستبعِد دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود ، نتيجة لتعذُّر الرؤية بين الضُّبّاط ورجالهم ، ويقرر « بلوفر » أنه يخشى العمليات الليلية .

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر . ولكنَّ خالدًا هو خالد .

معركة المصيّخ :

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة ، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على جنودهم ، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين ، فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل ، وقبل طلوع القمر وفي غَلَس الظلام ، قام خالد بتطويق المصيّخ على شكل دائرةٍ ، دون أن يشعر بوجودها أهل المصيّخ الذين كانوا نيامًا ، وَمَنْ ظلّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عرس حرقوص بن النعمان أحد زعمائهم . وقال لهم حرقوص : « اشربوا شراب وداعٍ ، فما أرى أن تشربوا بعدها ، هذا خالد في عين التمر ، وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جَمْعُنا وليس بتاركنا » . ولم يعلم

أن جيوش خالد قد طوّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر . ثم أنشد حرقوص :

أَلَا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظَّهْرِ ... بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدّثْرِ
وَقَبْلَ منايانا المُصيبةِ بالقدْرِ ... لِحِينٍ لَعَمْرِي لا يزيد ولا يحْرِي
ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرٍ ... لعلَّ منايانَا قريبٌ ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ... ستطْرُقُكم عند الصباحِ على البشْرِ
فهل لكمو بالسير قَبْلَ قتالهمْ ... وقبل خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ
أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني ... أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال ، فعندما غمر القمر بنوره الأرض ، شَنَّ خالدٌ وقادته الهجوم الصاعق من جميع الجهات ، وكان حرقوص أوَّل الذين قُتلوا ، فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران ، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها ، وقُتل جميع أبنائه ، وصحا النائمون من أهل المصيّخ على وقع السيوف ، وانهزم وقُتل الذين استعدّوا للقاء خالد ، وكانت غارة موفّقة ، وأُبيد أكثرُ أهل المصيّخ ، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل .

الثني والزميل :

وبعدها بأربع ليالٍ ، طَبَّقَ خالدٌ نفس خطته في المصيخ على الثني ، فأباد رجال الثني عن آخرهم وسبوا كلَّ النساء . وفعل بالزميل ما فعل بالثني والمصيّخ ، وقسم جيشه فرقًا ثلاثًا ، وأحاط بالزميل من جهاتها الثلاث ، وباغتهم عند بزوغ القمر ، وأوقع المسلمون فيهم السلاح ، فأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً لم يقتلوا مثلها ، ونجا مَنْ أفلت من الموت تاركين نساءهم وأطفالهم غنيمة للمسلمين .

* * *

خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشرة هجرية :

اتَّحد النقضيان الفرس والروم لقتال خالدٍ ، فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين ؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد ، واحتشد الجميع في جيشٍ لا يقلّ عدده عن مائة وخمسين ألفًا ، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في الفِراض بحدود الشام ، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا وقالوا لهم : « احتسِبُوا ملككم !! هذا رجل يقاتل عن دينٍ وعقلٍ وعلمٍ ، والله ليُنصرنّ ولتُخذَلُنَّ » . وخيّر الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم ، أو يخلّي عنهم فيعبروا هم الفرات ، فقال لهم : « بل اعبروا إلينا » . فطلبوا من خالد أن يتنحَّي عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحّى . فقال خالد : « لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا ، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور » . ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبة حتى تكون الصحراء خلف ظهره ، وتصاعد لَهَبُ القتال ، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة ، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإسلامي ، ولحظ خالد ذلك ، فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم ، فصاح فيهم : « ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم » . فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا ، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوبٍ رائع في القتال ، إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفَاء بالرِّماح ، فإذا جمعوهم ، قتلوهم عن آخرهم ، ثم عمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة ، فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ ، فقتل المسلمون منهم يوم الفِراض – في المعركة وفي المُطاردة بعدها – مائة ألفٍ ، في روايات جميع المؤرِّخين . وكانت معركة الفراض خاتمة معارك خالد في العراق .. وما أحلاها من خاتمة .

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة :

لقينا بالفِراضِ جموعَ رومٍ وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا وبيَّتْنَا بِجَمْعِ بني رزامِ
فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى رأينا القومَ كالغَنَمِ السَّوَامِ

قال أهلُ التاريخ عن خالد : « كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً ، وكان خالدٌ إذا نزل ، نزل عذابًا من عذاب الله عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ » .

وأمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق ، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا ؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فَدَعِ العراق وخلّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه ، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق ، حتى تأتي الشام ، فتلقَى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام » . وعند الطبري : « أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأَشْجَوْا ، وإياك أن تعود لمثلها[1] ، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس – بعون الله – شجاك ، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك ، فَلِيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة ، فأتْمِمْ يُتمم الله لك ولا يَدْخُلَنَّكَ عُجْبٌ فتخسر وتخذل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ فإن الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجزاء »[2].

خالد قمَّة في الطاعة والانضباط العسكري :

لله دَرُّكَ يا خالد .. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك ، ويذيع صِيتُكَ بين أعداء الله الفُرس ويرهبون اسمك .. وبينك وبين المدائن التي تتوّج نصرك

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٨٤ .

قاب قوسين أو أدنى ، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْك العراق ، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه ، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم دسين العجلي : « أصلحك الله ، والله ما جعل الله في الشام من العراق خلفًا للعراق ، أكثر حنطةً وشعيرًا وديباجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا ، وأوْسَع سعةً وأعْرَض عرضًا ، والله ما الشام كلّه إلا كجانبٍ من العراق » . فرردت – لله دَرُّك – وما تُريد إلَّا عزَّ الإسلام : « إن بالشام أهل الشام ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرت ، فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَد ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها ، فإن نفرغ ممَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا ، عجلْنا لكم ، وإن أبطأتُ ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنوا ، وليس خليفة رسول الله ﷺ بتاركٍ إمدادكم بالرجال حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد ، إن شاء الله تعالى » .

حـرب المفاجـآت :

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس ، فنكاد نجزم بأخْذ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التّكتيكيّة فأربكتْ صفوفَ أعدائه ... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من كاظمة إلى الحفير ، إلى كاظمة مرة ثانية ، ثم مفاجآته لعدوه في كمين الولجة ، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف ، وفي مفاجأة « عقّة » في عين التمر باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا . فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا ، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوّه وكسبه في المصيّخ وفي الثني وفي الزميل ، في سرعةٍ وخفَّةٍ ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال . رضي الله عن خالد ، لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسُّد ، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة ، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة . « بارز خالد يوم « الولجة » رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ فقتله ، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا .....

بغدائه »[١].

ورضي الله عن عمرو بن العاص ، القائل في مدح خالد : « له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد »[٢].

وفي واقعنا المعاصر :

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر :

ينقل الدكتور عبد الله عزام في إحدى رسائله ، عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في ٦٧ وكان يهوديًّا ولا يعرفون .. وهو صاحب كتاب « وتحطَّمت الطائرات عند الفجر » وقد طُبع بأكثر من لغةٍ : « كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ، ليلة الخامس من يونيو ٦٧ ، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي ، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي ... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى ، واستمرَّت إلى قُبيل الفجر ، وعند الفجر كان ضرب المطارات لمَّا نام العصاة في وحلهم ، وبعد أن تمَّ له ما أراد ، هرب اليهوديُّ مع أول طائرة » .

في الطريق إلى الشام : قطع البرية السماويَّة في خمس ليالٍ :

قال الذهبي عن خالد بن الوليد : « تأمَّر في أيام النبي ﷺ ، واحتبس أدراعه ولأُمته في سبيل الله ، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة ، وغزا العراق ، واستظهر ، ثم اخترق البرية السماوية ، بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه ، وشهد حروب الشام ، ولم

---

(١) الطبري ٢ / ٥٦٠ .

(٢) اليعقوبي ٢ / ١٠٨ .

يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء »[١].

فعدَّ من مناقبه وأعماله قطْع البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في خمسِ ليالٍ .

أرسل خالد قبل قطْعه المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة ، وكان من قوله « ..... إن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرتُ وانكمشتُ[٢] ، وكأنّ خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحُسن ثوابه . عصمنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبَّتنا وإيَّاكم على الإسلام ، ورزقنا وإيّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم » . وكتب إلى أبي عبيدة : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو . أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتَّولِّي لأمرها ، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردتُه ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها ، لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمرٌ دونك ، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلُك ولا يُستغنى عن رأيك ، تمَّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » . فقال أبو عبيدة : « بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيَّا خالدًا بالسلام » .

سلك خالد أقصر طريق أمين ؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) أسرعت .

كبيرة فيه ، وهو طريق الحيرة – دومة الجندل – وادي سرحان – قراقر – وهناك استشار أصحابه قائلًا : « كيف لي بطريقٍ أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها ، حبستني من غياث المسلمين ؟! » . فأجابوه : لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذُّ الراكب ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين . فعزم عليهم ، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي ، على تهيُّبٍ شديد ، فقام خالد في أصحابه وقال : « لا يختلفنّ هَدْيُكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة ، والأجر على قدر الحِسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة الله له » . فكان رد أصحابه عليه : أنت رجلٌ قد جمع اللهُ لك الخير ، فشأنك[1]. فقال خالدٌ لدليله رافع : « انطلق بالناس » . فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال ، والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء . فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء ، وأمر صاحب كل خيل أن يعدّ لها الماء بقدْر ما يسقيها ، وجمع عددًا من الإبل السِّمان ظمَّأها ، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[2] ، فلمَّا امتلأت صرَّ آذانها وشدَّ مشافرها لئلا تجترّ[3]. وانطلق خالد بالجيش ، ينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون ممَّا معهم من الماء ، ثم يشُقُّون بطون عشرة من الإبل ، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ ، حتى اليوم الخامس ، حيث أدركوا الرّيّ . لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ، ما عندك ؟ » . وكان رافع أرمد ، فأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم قال : أيها الناس ، انظروا علميْن

---

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٦٠٣) ، والكامل لابن الأثير (٢ / ١٥٦) .
(٢) العَلَل : الشَّرْبَة الثانية ، والنَّهَل : الشربة الأولى .
(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٦٠٣ ، والكامل ٢ / ١٥٦ ، وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٤ .

كأنهما ثديان . فلمّا أتوهما ، وقف رافع عليهما وقال : انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : ما نراها . فأمرهم بالتفتيش عليها ، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها . فحفروا ، فنبع الماء من عينٍ ، فشرب الناس حتى رووا ، فقال رافع : والله ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرّةً واحدة مع أبي وأنا غلام[1].

لله دَرّك يا خالد .. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي ، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيّب عنه الأدِلَّاء .. فللَّه بركتك .. ولله دَرّك من سيِّدٍ من ساداتِ أولياء هذه الأمة .

خالدٌ لها ، والله لأُنسِيَنَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد :

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام ، وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة ، التي بلغت ربع مليون مقاتل ، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا ، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق : « وبعد ، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد أجمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة ، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك » . فقال الصِّدِّيق : « خالدٌ لها ، والله لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[2].

فتح تَدْمُر :

مرّ خالد في طريقه بتدمر ، فتحصّنوا منه ، فأحاط بهم من كل جانبٍ ،

---

(١) أسد الغابة ٢ / ١٥٥ ، والاستيعاب ٢ / ٤٨٢ ، والطبري ٣ / ٦٠٣ - ٦٠٤ ، وابن الأثير ، ٢ / ١٥٦ .

(٢) الطبري ٢ / ٦٠٢ .

وأخذهم بكل مأخذ فلم يقدر عليهم ، فقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب ، لاسْتَنْزَلْنَاكُم ، ولَظَهَرْنَا عليكم ، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا ، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا ، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم » . ثم ارتحل عنهم فمضى ، واجتمع عظماؤهم ، فقال بعضهم لبعض : « لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم ، هم الذين كنّا نتحدّث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم وصالحوهم » . فبعثوا في إثر خالد ، فرجع إليهم ، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه .

أيّ عزٍّ عزُّك يا خالد !! ترحل ماضيًا عنهم ، فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك ؛ خوفًا منك ومن تهديدك .

فتح القريتين وحوارين :

وأتى خالد القريتين ، فقاتله أهلها فظفر بهم ، وغنم منهم . ثم مرَّ على حوارين فخافه أهلها وهابوه ، وتحرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا ، فأغار عليهم واستاق مواشيهم ، وقتل رجالهم ، وأقام عليها أيامًا ، فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان ، أحدهما من بَعْلَبَك ، والآخر من بُصرى ، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين ، فلمَّا رآهم خالدٌ ، صفَّ صفوفه ، ثم خرج في مائتين من الفرسان ، فحمل على مدد بعلبك ، فقصف بعضهم على بعض ، وأثخن فيهم قتلًا ، فما صمدوا ساعة حتى انهزموا ، وحمل على أهل بُصرى فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة ، وخرج أهل حوارين فرموا المسلمين بالنّشاب ، فحمل عليهم خالد ، وأعادهم إلى حوارين منهزمين ، ورجع عنهم ذلك اليوم . فلمَّا كان اليوم التالي ، خرج أهل حوارين ليقاتلوا المسلمين ، فهاجمهم خالد فهزمهم ، فلمَّا رأوْا أنهم لا طاقة لهم به ، صالحوه . قال علج من أهل حوارين – وكان من شجعانهم وأشدّائهم – : « والله لخرجنا إلى خالد بعدما

جاءنا مدد بعلبك وأهل بُصرى بيوم ، فخرجنا إليه ، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو إلَّا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأُسْد ، فهزمونا أقبح هزيمة ، وقتلونا أشدّ القتل ، فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم . وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل ، وكان يقول : لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه . فلمَّا رأى خالدًا قال له أصحابُه : هذا خالدٌ أمير القوم . فَحَمَلَ عليه العِلْجُ ، وإنّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالدٌ فرسه ، فقدمه عليه ، وكان خالد إذا كان عند الحرب ، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه ، فاستقبل العلجَ فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ ، فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه فقتله . وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم » .

مَرْج رَاهِط :

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسّان النصارى ، قد اجتمعوا بمرج راهط وعليهم الحارث بن الأيهم - أخو جبلة بن الأيهم - فانقضَّ عليهم خالد ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ، وسبى منهم يوم فحصتهم[1] ، ونزل بالمرج أيامًا ، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية ، فالتقيا ومضيا معًا بِجُنْدَيْهما إلى بُصرى .

فتح بُصْرَى :

جِزْية بصرى أوَّلُ جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق :

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد .....

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٠ ، وتاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٨ ، وفتوح البلدان للبلاذري ١٣٢ .

لبُصرى[١] : « كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام ، فأقبل حتى نزل ببُصرى من أرض حوران وهي مدينتها ، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم ، فأقبل إلينا ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلّا أنّا في أكُفِّهم ، فخرج خالد فصفَّنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور ، وعلى الرجال عبد الرحمٰن بن حنبل الجُمحي ، وقسّم خيله ؛ فجعل على شطرها المسيّب بن نجبة ، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل ، فظننتُ أنه مذعور العجلي ، فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما ، أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال ، ثم ينصَبَّا على القوم[٢] ، فانطلقا ففعلا ذلك . ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله ما نحن إلَّا ثمانمائة رجل وخمسون رجلًا ، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاعة ، فكُنّا ألف رجلٍ ومائتي رجل ونَيِّفًا ، وكنّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم ؛ لجُرأته عليهم وشدّته ونجدته . ثم دنونا منهم ، فبدءونا بالحملة علينا ، فشدُّوا علينا شدَّتَيْن ، فلم نبرح مواقفنا ، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عال فقال : « يا أهل الإسلام ، الشدَّة الشدة ، احْمِلُوا - رحمكم الله - عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم مُحتسِبين ، تريدون بذلك وجه الله ، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً » . ثم إن خالدًا شدّ عليهم وشددْنا معه ، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو ، ما ثبتوا لنا فُواقًا حتى انهزموا ، فقتلْنا منهم في المعركة مقتلةً عظيمة ، ثم أتْبعنَاهم نَكْرُدُهم[٣] ونقتلهم ، ونُصيب الطرف منهم ونقطعهم عن أصحابهم

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد .

(٢) مِثْل كَمِينَي الوجَة .

(٣) أي نطردهم .

ثم نقتلهم ، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بُصرى ، فأغلقوا أبوابها وتحصَّنُوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا ؛ أهلُ بصرى ، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون ، وسألونا الصلح فصالحناهم » . وكانت جزية بُصرى أوَّل جزية بالشام في عهد أبي بكر .

ولمّا جاءت الأنباءُ هرقل ، قال لجلسائه : « ألم أقُل لكم : لا تُقاتلوهم ؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم ؟!! إن دينهم جديد يجدِّد لهم ثِبارهم[1] ، فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى » . فقالوا : « قاتل عن دينك ولا تُجبِّن الناس واقضِ الذي عليك » . قال : « وأيّ شيءٍ أطلب إلّا توفير دينكم » .

أجنادين ... يَوْمٌ من أيّامِ خالد :

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين ، وأن نَصَارَىٰ العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه . وقام خالد في جيشه خطيبًا ، وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ : « أما بعد ، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين ، وأنهم استعانوا بأناسٍ - وَهُمْ قليل - من أهل البلد ، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا . واللهُ - إن شاء الله - جاعلُ الدَّبَرة عليهم وقاتلهُمْ كلّ مقتلة ، فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان ، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين مِن البلقاء ، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين » . وكتب إلى « شرحبيل » وسائر الأمراء :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد ، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ،

---

(١) مواظبتهم عليه .

ولا قوة ، واللهُ قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم . وقد شخصتُ إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رحمكم الله - في أحسن عدَّتكم وأصحّ نيّتكم ، ضاعفَ الله لكم أجوركم وحطّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وصلت جيوش المسلمين وتوافت جموعهم في أجنادين ، وجاء « وردان » بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين ، وانضمّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم ، حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مائةِ ألفٍ ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا ، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرىٰ ، هي الأولىٰ في حجمها في حرْب الشام ؛ يقول ابن إسحاق : « لمّا تدانىٰ العسكرانِ بعث « القُبُقْلار » رجلًا عربيًا من قضاعة ، يقال له : « ابن هزارف » ، فقال : ادخل في هؤلاء القوم ، فأقمْ فيهم يومًا وليلةً ثم ائْتني بخبرهم . فدخل في الناس .. رجل عربي لا يُنكر ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه ، فقال له : ما وراءَك ؟ قال : بالليل رهبانٌ وبالنهار فرسانٌ ، ولو سَرَق ابن ملكِهم قطعوا يده ، ولو زنىٰ رُجم ، لإقامة الحقّ فيهم » . فقال له القبقلار : لئن كنتَ صدقتني لَبطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها ، ولَوَددتُ أنّ حظي من اللهِ أن يُخلّي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

خرج خالد فصفَّ قواته ، فجعل أبا عبيدة على المشاة ، وجعل معاذ ابن جبل على الميمنة ، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة ، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل ، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين ، لا يستقرّ في مكانٍ واحد ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم ، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستغثْنه ، وكلما مرّ بهنّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن ، وقُلن له : قاتلوا دون

أولادكم ونسائكم . كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنّ . وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة ويقول : اتقوا الله عباد الله ، قاتلوا في الله مَنْ كفر بالله ، ولا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تهنوا من عدوكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ ، فقد أبيْتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ، ولا يَهُولنَّكم ما ترون مِن كثرتهم ؛ فإن الله مُنزِلٌ عليهم رجزَه وعقابَه ، ثم قال : أيها الناس ، إذا أنا حملتُ فاحملوا . وكان خالد أولَ مَن حمل على صفوف الروم ، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين ، وقال لهم : احملوا - رحمكم الله - على اسم الله . وحمل خالد على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفّ ، فقد سئموا الوقوف ، وكانت معنوياتهم مرتفعةً ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرَّتَيْن ... ثم صبروا لرشْق نبالهم ، والآن صَدَرَ الأمرُ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت ، فما صبر الروم له فُواقًا - على حدِّ تعبير الرواة - وانهزموا هزيمةً شديدةً ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وأصابوا معسكرهم وما حوَىٰ .

وعند ابن إسحاق : « لما رأى القبقْلار - قائد الروم - ما رأى مِن قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثوبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه ! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا . فاحتزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لملفَّفٌ » ، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى « هِرقل » فنُخب قلبُه وأُسْقِطَ في يده ، ومُلئ رُعْبًا .

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف ، وفرّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو « إيلياء » و« قيسارية » و« دمشق » و« حِمْص » ، وتبعهم المسلمون يطاردونهم ، فيقتلون منهم ويأسرون . وكتب خالد إلى

أبي بكر رضي الله عنه :

« لِعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ مِن خالدٍ بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، أمَّا بعد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إلٰه إلا هو . أما بعد : فإني أخبرك أيها الصديق أنّا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعًا جمّة كثيرةً بأجنادين ، وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكّلين على الله ، فطاعنّاهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف ، فقارعناهم في كلّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ ، فأحمد الله على إعزاز دينه ، وإذلال عدوِّه ، وحسْن الصنع لأوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فلما قرأ الرسالة فَرِحَ بها وأعجبتْه ، وقال : « الحمد لله الذي نصر المسلمين ، وأقرّ عيني بذلك » .

مرج الصفر :

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[1] ، كانوا من أهل القوّة والشدّة ، ليُغيث حامية دمشق ، وانضمّ إليهم عدد كبير من حامية حمص ، فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في مرج الصفر جنوب دمشق ، وصفّ خالدٌ جيشه ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم ابن عتبة ، وعلى الفرسان سعيد بن زيد ، وعلى المشاة أبا عبيدة ، ثم سار خالد فوقف في أوَّل الصف ، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم ، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره ، فبادره الروم بالهجوم . وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله ، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم ، فحملتِ الروم تجاهه بثقلهم ، فصمد لهم سعيدٌ ونازلهم في فرسانه ،

(١) رتبة لقائد ، وليست اسم شخص .

وتحرَّكتْ صفوف المسلمين ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة ، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة[1].

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم ، وقتلوا منهم كثيرًا وتبددت فلولهم شراذم ، فمنهم من دخل دمشق مع أهلها ، ومنهم من رجع إلى حمص ، ومنهم من لحق بهرقل ، ومنهم من فرّ إلى بيت القدس . وقُتل من الروم خمسمائة في المعركة ، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمسمائة آخرين .

وفاة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وَعَزْل عمر لخالد من قيادة الجيش :

توفي الصديق رضي الله عنه ، وتولّى عمر الخلافة ، فعزل خالدًا أثناء حصار المسلمين لدمشق ، وهو الحصار الذي لم يتمّ فتح دمشق فيه .

وعند الطبري (٢ / ٥٩٥) ، وابن الأثير (٢ / ٨٥) : أنّ عَزْل خالد كان أثناء معركة اليرموك .

خالد في معركة فحل بيسان حديث ومَثَل لمن حضره :

كانت هذه المعركة من المعارك الهامّة ضِمْن فتح الشام ، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا ، هم جُنّة الروم وجيش الدفاع ، وإليهم ينظرون ، والشام بعدهم سلم ، وكان القائد سَقِلّار بن مخراق أو « سكلاريوس » . وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المُشاة سعيد بن زيد بن عمرو ، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خالد بن الوليد . تقدَّم خالد بالخيل ، فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة ، وكان قيس بن هبيرة من أشدّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرةً لهم ، فقال له خالد أن يخرج إليهم ، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه ،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ ، وابن عساكر ١ / ٤٨٢ .

فقاتلهم قتالًا شديدًا . ثم خرجت خيل أُخرىٰ عظيمة للروم ، فقال خالد : اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق . فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وحمل عليهم وحملوا عليه ، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرىٰ من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين ، يقودهم بِطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم ، فقسَّم فرسانه قسمين ، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه ، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح ، ثم أمر البطريق الثاني ، فحملوا أيضًا على خالدٍ ، فصمد لهم ، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا ، تراجعوا وانصرفوا ، فقال خالد لفرسانه : « إنه لم يبق من جدّ القوم ولا حدّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم ، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتّبعوهم ولا تغفلوا عنهم ، رحمكم الله »[1] . وحمل خالد بمن معه ، فاكتسح مَنْ أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم فهزمهم ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم ، ويقصفون بعضهم على بعض ، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم . وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر . وفي اليوم التالي ، قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ، ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين ، فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره ، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يُخالطهم ، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم ويهزمهم ، ويُكثر القتل فيهم ، قَتَل في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم ، وأشدَّائهم وأهل الشجاعة منهم ، وكان يقول :

أضْـرِبهُمْ بصــارِمٍ مُهَنَّــدِ ضَرْبَ صَلِيبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِنِ القولِ ولا مُفَنَّدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشدّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ ، وقد طوىٰ

---

(١) تاريخ فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي ص٩٦ .

المسلمون جناحَيْ جيش الروم ، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل ، وانهزم الروم وهم حيارىٰ ، وقد قُتل في هذه المعركة قائدهم « سقلار » والذي يليه « نسطورس » ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ ، وذهب البلاذري إلى أن قتلىٰ الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف .

قَتْلُ خالِدٍ لِلبِطْرِيقِ الرُّومي توذرا :

بعث هرقل بطريقًا يُدعىٰ « توذرا » حتى نزل بمرج دمشق وغربها ، وكان خالد تجاهه ، وباتوا ليلتهم ، فلمّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[1] من توذرا ، وعلم خالد أنه قد رحل نحو دمشق ، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان . وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق ، فبلغه مسير توذرا إليه فاستقبله ، فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون ، فأخذهم مِن خلفهم ؛ بين قوّاته وقوات يزيد ، وقُتل الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقتل خالدٌ توذرا ، فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم ، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول :

نحنُ قتلْنا تَوْذرًا وشَوْذَرا وقَبْلهما قد قتلْنا حَيْدَرَا
نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

فتح دمشق : خالد لا ينام ولا يُنيم :

حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر ، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حوت عَنْوَةً . نزل أبو عبيدة على باب الجابية غربي المدينة ، ونزل يزيد على الباب الصغير ، إلى باب كيسان ،

---

(١) يعني خاوية .

أمّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبر وأهم هذه الأبواب جميعًا . وطال الحصار على أهل دمشق وازداد التوتر بينهم ، فبعث بطريق الروم رجُلَيْن يندسَّان بين المسلمين ؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم ويريا أحوالهم ، وكان رجلان من غسّان دخلا دمشق يتسوَّقان منها قبل حصارها ، فبعث إليهما البطريق ، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين ليأتيه بخبرهم ثم رجع ، وقيل : كانوا عيونًا فسألهم عمَّا رأوا ، فقالوا : أمّا الليل فطولُ قيامٍ ، وأمَّا النهار فالخير الظّاهِر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلًا أو كبّة شعرٍ أو غزلًا ، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم ، فإذا قال صاحب المقسم : ما هذا ؟ قالوا : لا نستحلّه إلَّا بحِلِّه . فلمّا سمع بطريق الروم ذلك قال : ما لنا بهؤلاء طاقةٌ ، ولا لنا في قتالهم خير .

كان أبو عبيدة أحَبَّ إلى الروم من خالد ، وكان خالدٌ أَفظَّهما وأغْلَظَهما عليهم ، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهما وأقْرَبَهما استماعًا إليهم ، فكان أحبّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة . حصر المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا ، وأهلها معتصمون بأسوارها يرجون الغياث ، وهرقل بحمص . وولد لبطريق الروم « نسطاس بن نسطورس » مولودٌ ، فاحتفل بذلك ، وأوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة ، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلَّا ما كان من خالد ؛ فإنه كان لا يغمض له جفن ، « ولا ينام ولا يُنيم ، ولا يبيت إلَّا على تَعْبِيَةٍ ، ولا يخفىٰ عليه من أمر عدوّه شيءٌ ، عيونه ذكيّة ، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم »[1] . وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢٦ .

والأبواب مغلقةٌ . وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة[١] - فلمّا أمسى من ذلك اليوم ؛ الأحد الخامس عشر من شهر رجب ١٤ هـ ، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال ، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي جاء به من العراق ، واقترب بهم من السور ، ثم تقدم هو والقعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي العجلي وأمثالهم من أبطاله الأشدّاء ، وكانت تعليماته لسائر قوّاته : « إذا سمعتم تكبيرنا فارقَوْا[٢] إلينا ، وانهدوا للباب » . وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَب المنفوخة بالهواء ، حملوها على ظهورهم ، وعبروا بها خندقهم سباحةً ، وقذفوا بأوهاق الحبال ، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه ، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور ، ومعهما باقي السلالم الحبال ، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور ، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أَحْصَنَ موقعٍ بدمشق كلها ، أكثره ماءً ، وأعْرَضه خندقًا ، وأشدَّه مدخلًا ، فلم يبق من قوّته كلها أحد إلا تسلَّق السلالم أو اقترب من الباب ، حتى إذا استقرّوا بأعلى السور ، حَذَر أكثرهم داخله ، وانحدر معهم خالد ، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر ، هذا وحامية دمشق في سُكرها ، مشغولة بالطعامِ والشراب والاحتفال بالمولود ، لا يشعرون بشيءٍ ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّروا ، وانقضَّ من كان ما زال خارجًا على الباب ، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال ، يتسلقونها من الخارج ويهبطون إلى الداخل ، وهاجم خالد بسرعة أوّلَ قوة وجدها ففرغ منها ، وانصبّ إلى الباب فقتل حُرّاسه - وكانوا رجلًا أو رجلَيْن - وثار أهل المدينة ، وفزع الناس ،

---

(١) حلقة .

(٢) أي اصعدوا .

وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه ، ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، واستغلّ خالدٌ أثر المفاجأة ، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه ، فتدفَّقتْ قوّاته من خلاله ، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب ، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع ، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوّة في ذلك القطاع ، إلَّا فرغ منها خالد ، وذلك مع طلوع الشمس . وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب ، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوّاد المسلمين ، وفوجئ هؤلاء القُوّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم ، في حين كان خالد يدخل غازيًا ، يعمل السيف في جنود الروم ، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا ، فينقذ الصلح الموقف ، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم . وصارت دمشق صلحًا كلها ، وفُتحت أبواب المدينة ، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عَنْوَة ، واستولى على ألف مترٍ طُولًا منها بالقتال ، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها ؛ وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة ٥٠٠ – ٥٦٠ مترًا ، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية .

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل .. لا ينام ولا يُنيم .. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار .. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم .

اليرموك .. خالد يشرب من دم الروم :

أرسل هراكليوس « هرقل » إلى بيزنطة عاصمة دولته ، وإلى من كان على دينه من جنوده ، ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية ، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحلم من أهل امبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني ، في تجنيد إجباري ، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية

الرومانية الغربية ، وهي لم تكن تحت سلطانه ، في أكبر محاولةٍ له ، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته لدفْع خطر المسلمين الداهم . يقول الرواة : فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض . وكان عدد الروم مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم وهو « باهان » ، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦,٠٠٠) ، منهم ألف رجل من الصحابة ، فيهم مائة بدري . وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى اليرموك ، فقال : « يا معشر الروم ، إن العرب قد ظهروا على سورية ، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم ، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرّ والشعير والذهب والفضة ، حتى يَسْبُوا الأخوات والأُمّهات والبنات والأزواج ، ويتّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا ، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم » . ثم سيّرهم إلى المسلمين . وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن « الروم قد توجّهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطُّ كانت قبلنا » . وقال أيضًا في كتاب آخر : « إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا ، ولم يخلّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح ، إلَّا جاشوا به علينا ، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحوٌ من أربعمائة ألف رجل ، قد جاء المسلمين ما لا قِبَل لهم به ، إلَّا أن يُمدَّهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَلِه ، والسلام عليك » . وأرسل عمر إليهم : « يا أهل الإسلام اصدقُوا اللقاء ، وشدّوا عليهم شدّ اللُّيُوث ، واضربوا هامتهم بالسيوف ، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ ، فإنا قد كُنّا علمْنا أنكم عليهم منصورون » .

البطل يُؤمِّر نَفْسَه :

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية ، قال خالد : « أرى

والله إن كُنّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منّا وأقوى ، وما لنا بهم إذن طاقة . وإن كُنّا نُقاتلهم بالله ولله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا ، أنهم تُغني عنهم شيئًا » . ثم غضب وقال لأبي عُبيدة : أتُطيعني أنت فيما آمرك به ؟ قال له أبو عبيدة : نعم . قال خالد : « فولِّني ما وراء بابك ، وخَلِّني والقوم ، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم » . قال : قد فعلت . وهكذا تولّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم اليرموك . وجمع باهان جنده وقال لهم : « أنتم عدد الحصى والثَّرى والذَّرّ ، فلا يهولنَّكم أَمْرُ هَؤلاءِ القوم ؛ فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجلّهم حاسِر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك ، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوّة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم » . وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان] : « إنّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلُمّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها » . فقال خالد : « إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنّا قومٌ نشرب الدِّماء ، وأنه بَلَغَنَا أنه لا دم أطْيَب من دم الروم ، فجئنا لذلك » . فقال أصحاب ماهان : هذا والله ما كُنّا نتحدّث به عن العرب[1].

الله الله يا خالد .. عِزُّ الإسلام يتكلَّم .. لله دَرُّكَ ، كم خلَّدت هذه الكلمة : « أنّا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك » .

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩ - ١٠ .

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة ، قبل معركة القادسية : « كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السنة ، استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم ، فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم بظلالنا ، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم ، وإنَّا ومثلكم مثلُ رجلٍ كان له حائط من عنب ، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا فقال : ما ثعلب واحد . فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط . فلمّا اجتمعن فيه ، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه ، ثم قتلهن جميعًا . وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم ، فارجعوا عنّا عامكم هذا ، فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ، ونحن نوقر[1] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا ، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين ، وتنصرفون عنّا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم ، فارجعوا عنّا ، عافاكم الله » . فقال له المغيرة فيما قال : « فكان مما رزقنا الله على يديه[2] حبة تنبت في أرضكم هذه ، فلمّا أذقناها عيالنا قالوا : لا صبر لنا عنها ، فجئنا لنُطعمهم أو نموت » .

هكذا يُرَدّ على الصَّلَف بعز الإسلام،لله دَرُّ المغيرة :

حيَّةٌ في الوجَار أرْبَد لا يَنْفَعُ منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقي

لما جاءت جموع الروم كالسَّيْل والليل ، وهم يجرُّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعاتٍ ، ومعهم صُلُبُهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة . وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العرب من قبل ، إذ نظم

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل .

(٢) أي رسول الله ﷺ .

جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا[1] إلى الأربعين ، وقال : « إن عدوّكم قد كثُر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس » . ثم جعل للقلب كراديس ، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان على الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة قبّاث بن أَشْيَم ، وعلى الرَّجَّالة : هاشم بن عتبة ، وكان خالد على الخيل . وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد : « أما والله إن أطعتموه ، لتطيعُنّ مباركَ الأمرِ ، ميمون النقيبة ، عظيم الغناء ، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة » . وقال معاذ عن خالد : « أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدّته عليهم وجهاده إياهم ، مع حُسن بصيرته وحسن نِيَّتِهِ وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا » . وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم ، والقاصّ الذي يتولّى تحميس المسلمين أبا سفيان ، وعلى الأقباض – وهي الغنائم – عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ؛ قرأ على الناس الأنفال . وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية ويقول : « يا أهل الإسلام ، إن الصبر عِزّ ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تُنصرون ، فإن الصابرين هم الأَعْلَوْنَ ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطل الضعيف ، وإن المُحِقّ لا يفشل ، يعلم أن الله معه ، وأنه عن حرم الله يَذُبّ وعنه يقاتل ، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين » . وجمع خالد فرسان المسلمين ، فقسمها أربع فِرَقٍ ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي ، وكان يساعده ويوافقه ، ويشبهه في جلده وشدّته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ، فقال له

---

(١) الكردوس : مفرد كراديس ؛ وهو كتلة من الجنود يتألّف من ألف مقاتل . وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية ، العريف يقود عشرة رجال ، وآمر الأعشار يقود مائة رجل ، ولكل كردوس قائد له راية .

خالد : « أنت فارس العرب ، وقلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي ، فاخرج معي في هذ الخيل » . وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل ، وجعل كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين . وجندل قيس بطريقًا من بطارقتهم ، فصاح خالد : « ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احمل عليهم يا قيس ، احملوا عليهم ، فوالله لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب » . فحمل المسلمون عليهم ، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال ، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف ، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ ، فقال للمسلمين : « قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة ، فاثبتوا لهم ساعةً ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم » . وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه جرجة ، فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين .

« يا خالد ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه ؟! » :

كلمات عطرة تحفر من نور في التاريخ قالها جرجة عند إسلامه لخالد : « يا خالد ، اصدُقني ولا تكذبني ؛ فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تُخادعني ؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه ، فلا تسُلَّه على قومٍ إلَّا هزمتهم ؟ » . قال : « لا » . قال : « فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول ؟ » . فقال له خالد فيما قال : « إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا منه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين » ودعا لي بالنصر ، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين » . قال : .....

« صدقتَني »[١]. ثم أسلم جرجة . وخرج باهان في جيشه وعلى ميسرته الدرنجار ، وزخف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا ، قد رفعوا الصُّلبان . فقال رجل : ما أكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين[٢]. فقال خالد : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال . أبالروم تُخوِّفني ! والله لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيه[٣] وأنهم - يعني الروم - أضعفوا في العدد » . وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له : « إن هؤلاء قد أقبلوا بعددٍ وجِدٍّ وحَدٍّ وزجل ، وإن لهم شدة لا يردّها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدّة خيلهم ورجالهم أبدًا ، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي ، فأكون في إحدى الخيلَيْن وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حملوا على الناس ؛ فإن ثبت المسلمون ، فالله ثبّتهم وثبّت أقدامهم ، وإن كانت الأُخرى ، حملْنا عليهم بخيولنا وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم ، وقد انتهت شدّة خيلهم وقوتها ، وتفرَّقتْ جماعتُهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرًا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يُظفرنا الله بهم ، ويجعل دائرة السوء عليهم ، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا ، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنةٍ ، في مائتين أو ثلاثمائة ، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين » . وقبل منه أبو عبيدة وقال له : « افعل ما أراك الله ، وأنا فاعلٌ ما أردتَ » .

رضي الله عن خالدٍ ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَل في صفوف عدوه ، فيهجم .

---

(١) الطبري ٣ / ٣٩٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١ / ٥٤٧ .
(٢) الطبري ٣ / ٣٩٧ وابن عساكر ١ / ٥٥٠ .
(٣) الأشقر هو فرس خالد ، والتَّوَجِّي أن يشتكي الفرس بطن حافره .

عندما اشتدّ هجوم الروم ، نادى خالد : « يا أهل الإسلام ، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلّا ما قد رأيتم ، فالشدّة الشدّة ، فوالذي نفسي بيده ليعطينّكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم » . كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن ، في حين كان قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر ، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم ، زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف ، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألفٍ ، فحمل عليهم ، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ ، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمعهم ذلك . قال عبد الأعلى بن سراقة : « وشددْنا على من يلينا من رجّالتهم فانكشفوا ، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا ، ما يمتنعون من قبل ميمنتنا بميسرتهم » . ذهل درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره ، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم ، وقتلتْ منهم ستة آلاف (٦,٠٠٠) في رواية ، أو عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) في رواية أُخرى ، وارتدّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى ، ما يمتنعون من القتل . وقال الدرنجار لأصحابه : « لفّوني بالثياب ، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم » . فلفّوه في الثياب وهو يقول : « لوددتُ أن الله عافاني من حرب هؤلاء ، ولم أرهم ولم يروني ، ولم أنصر عليهم ولم يُنصروا عليَّ ، وهذا يوم سوء » . وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتل . وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا ، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب ، وكان صوت أبي سفيان يكاد يملأ المعسكر : « يا نصر الله اقترب ، الثبات يا معشر المسلمين » . وتراجع الروم ، ودفعهم خالد إلى الواقوصة[1] ، والواقوصة أحد حدوده

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك .

لِهْب[1] لاج في الأرض ، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم ، فتهافت في الواقوصة مائة وعشرون ألفًا (١٢٠,٠٠٠) منهم ثمانون ألفًا (٨٠,٠٠٠) مقترنون بالسلاسل ، وأربعون ألفًا (٤٠,٠٠٠) مطلقون ، سوى من قُتل بالمعركة من الخيل والرجال ، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب « الواقوصة » ؛ لأنهم وُقِصوا فيها ، وأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم ، وقُتل صناديد الروم ورؤساؤهم ، وقُتل أخٌ لهرقل اسمه « تيودورس » . فلما أصبح خالد ، خرج في الخيل يتعقّب الفلول الهاربة ، ويقتلهم في كل وادٍ وفي كل شِعْب ، وفي كل جبلٍ وفي كل ناحية ، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهى إلى دمشق ، ثم انطلق في آثار الروم ، ومضى يتعقّب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب ، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق ، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول ، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص .

وانتهت قصة الروم في أرض الشام ، أتوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا ، ما قُوتل المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبل وسهل .

قِنَّسْرِين وكلمات خالدٍ الخالدة : « لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا » :

بعث أبو عبيدة - رضي الله عنه - خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية - فلمّا نزل خالد بالحاضر قاتلوه ،

---

(١) هاوية .

وزحف إليه الروم بقيادة « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فقُتل ميناس ، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا ، لم يبق منهم أحد ، ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم ، فتحصّنوا منه ، فقال لهم خالد : « لو كنتم في السحاب ، لَحَمَلَنَا اللهُ إليكم ، أو لَأَنْزَلَكُم إلينا » . فنظروا في أمرهم ، وذكروا ما لقي أهل حمص ، فطلبوا صُلْحًا مثل صلح حمص . يقول البلاذري : إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص ، وتقول رواية سيف : إن خالد بن الوليد أبَى إلَّا أن يُخَرِّب المدينة ، فأَخْرَبَهَا .

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقنَّسْرِين فقال قولته العظيمة : « أَمَّر خالدٌ نَفْسَهُ ، يرحم الله أبا بكرٍ ، هو كان أعلم بالرجال مني ، إني لم أعزله عن ريبة ، ولكنّ الناس عظّموه ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليه »[1].

خالد المطيع لقائده :

كان خالد مضيافًا كريمًا ، قصده الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف ، فسمع بذلك عمر ، فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد ، فجمع أبو عبيدة الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام صاحب البريد ، فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث ، فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا ، فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال : « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ». ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته ، وقال : « من أين أجزتَ الأشعث ؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا ؟ » . فقال : « بل من مالي » . فأطلقه ، وأعاد قلنسوته ، ثم عمَّمَهُ بيده وقال : « نسمع ونُطيع لولاتنا ، ونُفخِّم ونخدم .....

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠١ .

مواليا »[١]. ولمَّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله قال خالد : « ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين »[٢].

ولله دَرُّه حين عُزل وهو في المعركة ، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا ، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا ، أو قائدًا مرؤوسًا أو رجلًا من المسلمين . هذه والله العظمة الإنسانية في أبهىٰ مشاهدها ، خالد يستلّ النصر من بين أنياب الروم ، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم ، وسيف الله المسلول على قوىٰ التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة !! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال . يقول الأستاذ خالد محمد خالد في « رجال حول الرسول » (٣٢٥) : « ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصِدقه الوثيق مثل هذا الموقف » .

خـالد القـائد :

لقد رفع خالد معنويّات المسلمين ، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس ، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذّروة ، فكان خالد قائد القادة ومطمح الأنظار ومعقل الآمال ، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا .

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدّه وجهاده .. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات .. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ ، لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ .. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب ، بل يمثل مجدًا وفكرة ، مجد عبقرية العرب في القيادة ، وفكرة الفتح

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٢ ، والإصابة ١ / ٥٠ ، وأسد الغابة ١ / ٩٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٢٥ .

الإسلامي ، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب ، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ .

خالد يحتبس أدراعه وأعتُدَهُ في سبيل الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة . فقيل : منع ابنُ جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « ما ينقم ابنُ جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله ، وأمّا خالد فإنكم تظلمون خالدًا ، قد احتبس أدراعه وأعْتُدَهُ في سبيل الله ، وأمّا العباس ابن عبد المطلب فَعَمُّ رسول الله ﷺ فهي عليه صدقة ومثلُها معها »[١].

عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه ، أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها . فلم يجدوها ، ثم وُجِدَتْ فإذا هي قلنسوة خَلَقَة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ ، فحلق رأسه ، فابتدر الناس شعره ، فسَبقتهُم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلَّا رُزِقتُ النصر[٢].

وعن مولى لآل خالد بن الوليد ، أن خالدًا قال : ما من ليلةٍ يُهدى إليَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ ، أحبّ إليَّ من ليلةٍ شديدة البرد ، كثيرة الجليد ، في سريةٍ أُصبِّح فيها العدو[٣].

وفي رواية : ما من ليلة يُهدىٰ إليَّ فيها عروس أنا لها مُحِبّ ، أو أُبشَّر فيها بغلامٍ ، أحبّ إليَّ من ليلةٍ شديدة الجليد ، في سريةٍ من المهاجرين ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الحاكم ، والطبراني وأبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح . وقال البوصيري : رواه أبو يعلى بسند صحيح .

(٣) أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

أُصبِّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد .

وقال رضي الله عنه : ما أدري من أي يومَيَّ أفِرُّ : يوم أراد الله أن يهدي لي فيه شهادة ، أو يوم أراد الله أن يُهدي لي فيه كرامة .

وقال قيس بن أبي حازم : سمعت خالدًا يقول : منعني الجهاد كثيرًا من القراءة ، ورأيتُه أُتي بسُمٍّ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سم . قال : باسم الله . وشربه .

قال الحافظ الذهبي : هذه والله الكرامة ، وهذه الشجاعة[1].

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ مِ إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ قال : لقد طلبتُ القتل مظانَّه ، فلم يُقَدَّر لي إلَّا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس ، والسماء تهلّني ، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار . ثم قال : إذا متُّ ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عدّة في سبيل الله ، فلمَّا تُوفي ، خرج عمر على جنازته فذكر قوله : ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن ، ما لم يكن نقعًا ولا لقلقة[2].

وفي رواية : وما عليهن أن يبكين أبا سليمان .

وقال عمر لخالد في حياته : يا خالد ، والله إنك لكريم عليَّ ، وإنك لحبيبٌ إليَّ . وبعد موته قال عمر : قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق . وقال فيه أيضًا : كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة .

---

(١) السير ١ / ٣٧٦ .

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ونسبه إلى ابن المبارك في الجهاد ، وإسناده حسن . والنقع : التراب على الرؤوس ، واللقلقة : الصراخ .

وعن أبي العجماء السلمي قال : قيل لعمر : لو عهدتَ يا أمير المؤمنين . قال : لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولّيْتُه ثم قدمتُ على ربي ، فقال لي : لِمَ استخلفْتَهُ ؟ لقلتُ : سمعتُ عبدك وخليلك يقول : « لكل أُمَّةٍ أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة » . ولو أدركت خالدًا ثم ولّيته فقدمتُ على ربي ، لقلتُ : سمعت عبدك وخليلك يقول : « خالدٌ سيف من سيوف الله ، سلَّه الله على المشركين »[١].

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ في الثّناء على خالد من عمر وكَفَىٰ .

« لقد خُلق خالد ليكون قائدًا ، فعاش قائدًا ومات قائدًا ، فغاب جسده ، ولكن بقي حيًّا في النفوس ، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقىٰ معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام ، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان »[٢].

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ
أجَوَادٌ فأنت أجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غَامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى ، وقال : لقيتُ كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم ، وها أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعْيُنُ الجبناء .

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا ، حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسِنَّة ، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة .

---

(١) رواه الشاشي في مسنده ، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء ، فإنه مختلف فيه ، وثقه ابن معين والدارقطني وابن حبان ، وقال البخاري : في حديثه نظر .
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٢٣١ .

لكأني بفرسك جاءتْ ، لها صهيلٌ يصدح .. يقودُها عبيرُك وأريجك ، هذه التي وَقَفْتَهَا في سَبيل الله .. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا .

« هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد ؟! وهل ستُذَلِّل ظهرَهَا لأحدٍ سواه ؟! إيه يا بطل كلِّ نَصْر .. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْل .. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » حتى ذهبت عنك مَثَلًا ... وها أنت ذا قد أتممتَ مسراك .. فلصباحك الحمد ، ولذكراك المجد ، والعطر ، والخلد ، يا خالد »[1].

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويا لعذابِ الخيلِ إذْ تتذكَّرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجَهم ... لِفَقْءِ عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونهر الدَّمِ يبكيك لون دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صلُّوا وكبَّروا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحْب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَزَّ له الأحنافُ رأسًا يُنَدَّرُ
مقالُك للرُّومانِ عِزٌّ وَرِفْعَةٌ ... وكم صيَّر العملاق « ماهان » أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهى وأعْطَرُ
تُرَدِّدُهَا الأجيالُ دومًا لخالدٍ ... لآلىء عزٍّ تَبْقَى تَبْقَى وتُزْهِرُ

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبضِ سيفٍ
كي يملِكَ ناصيةَ الكلمةِ في هذا الزَّمنِ المخبول

---

(١) رجال حول الرسول صـ ٣٣٢ بتصرف .

أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِك
كي أتملَّاكَ ... وعلِّمْني كيف أصُول

* * *

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً .. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جِلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

* * *

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرْمِ
بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى .. لو أكتُبُ عنك بأيّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

* * *

.....

يا خالدُ .. عقلُكَ عقلُكْ[1]
دينُكَ دينُكْ .. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثلُك يَخْفَىٰ النُّورُ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيفَ يَرِيشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلألأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ .. وملعونٌ مَنْ كابرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا .. وعتيدًا
يا جارَ الماحِلِ والمائِلِ .. والمنقطعِ
ويا عزَّ المستضْعَفِ فيها

* * *

ودرجتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أسمعتَ الأرضَ أناشيدَ رِماحِكْ
وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ الله بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفَعَ بشَكَائِمِهَا

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام ، وقال له : يا خالد ، عقلك عقلك ، سألني عنك رسول الله ﷺ .

وتُنَازِلَ بحوافِرها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

* * *

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَقَ فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ المَحْتِدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ .. اللهَ عليكْ
علّمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النَّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداءِ الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كفَّيْكْ
يا خالدُ
لا يُبصِرُ قومٌ وجهكَ .. قلُّوا أم كثُروا إلّا انهزموا عنكَ
فلا أحدٌ أيمنَ طائرَ منكَ
ولم تعرف هذي البيداءُ أحدَّ عليها مِن سيفكَ
فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ
وَقَدِمَ الرَّكبُ المكيُّ الفارِعُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ
لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ .. بِعُمقِ الأرضِ
الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ
فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشِيَّة عانَقَهَا أَلَقُ الدِّينْ
وحباها اللهُ مِن النُّورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ

يا خالدُ
مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيلِ
أخَالُكَ لا تأكلُ إلَّا بالسيفِ
تلوتَ كتابَ اللهِ على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفَا
ودخلتَ الإسلامَ كبيرًا
وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ .. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحِيلةِ
يا جَبَلَا أمجادِ قُريشْ
لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ
وكأنّ مكانكَ في الإسلامِ يُناديكَ
وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ
يا خالدُ
يا صاحِبَ « ناصيةِ رسولِ اللهِ »
ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا
تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإسلامِ وتدفعُها
في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشَّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ .. أتقعُ على الموتْ

أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستَقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تمُرُّ إلى الجنّاتِ بإذنِ اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإسلامِ .. ويا فاتحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ الله مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في الله إلى مرماهْ
علّمْني أنَّ المَوْلدَ في الموْتِ حياهْ
« لا نامتْ عينُ الجُبَنَاء » .. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجِفْنُ المُغْمَضُ .. لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ
مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروق على أسْمالِكْ
مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلِعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً .. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزيِ .. المُنْخَنِسِ الضّائعِ
معذرةً .. ما شرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ
أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ
هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ
لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبِلِ إن شاء اللهْ
هل تأذنُ بإعارة سرجِ جوادِكَ يومًا
كي يعرفَ حاكمُنا المُطَهَّمُ
ما معنى الخيلِ المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ
يا خالدُ
لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ .. لكانتْ رايتُنَا أعْلَى
لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ .. لكانت حُجَّتُنَا أجْلَى
لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ .. لكانت كلمتُنَا أحلَى
لو كان لدينا وتدٌ مِن خيمتِكَ الآنَ
شكيمةُ فَرَسِكَ .. دِرعُكَ
لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ .. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنْسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ .. وقال : قد أمَّر خالدُ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا

في سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبّارِينَ أبَتْ أن تُقطفَ إلَّا بهْ
وتلوتَ على النّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللهَ عليك .. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذِ الميدانُ يؤزُّ .. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرَفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

* * *

يا خالدُ
علَّمَك الله بأنْ تضربَ فوقَ الأعناقِ
وأن تَضرِبَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمهْ
« واللهِ .. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُنِي الله إليه .. أو يُنزِلهُ الله إلَيّ »

* * *

اللهَ عليك وأنت بِحِمْصَ تفوحُ كَزَهْرِ الشّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشّامْ
والناسُ حواليْك تَدورُ .. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

* * *

اللهَ عليك .. وسيفُك يجتثُّ العُزَّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ .. ويا قامعَ مَنْ بَدَءُوكْ
أميرًا كنتَ .. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ
ويا قامعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ
« إذا دُعِيَ أجابَ »
« وإن نُودِيَ لَبَّى »
« وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها »
لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ
الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ
فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ
في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ
كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو
وجنودُ اللهِ بدُونِكَ تكبو
في وقتٍ كنتَ تُعِيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ
﴿ **ومزقناهم كلَّ ممزق** ﴾
وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ
وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَخْبُو

لكنّك تسمعُ وتطيعُ .. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًّا
ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ
في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ
ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ
وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ
ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مِثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغْلغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
« في خالدٍ .. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ »
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُملِي هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ « نهر الدمِ » وقامِعَ رأسِ « الرِّدَّةِ »
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾
﴿ **واجتنبوا قولَ الزور** ﴾

يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِرِ ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ .. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

* * *

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السّابِغُ من هذا البدرِ أنار مَجَاهِيلَ الكوكبِ
أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

الله عليكَ وأنت تَمِيدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعِمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مالِ اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ

فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ تُقاسِمُهُ المالَ مُناصَفةً
حتى نَعْلَيْهْ
فابستمَ الناسُ وقالوا : هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بلالُ إليكَ
ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ
وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها
اللهَ عَليكَ
وأنت ذَلُولٌ .. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ
بل تبسطُ وجهكَ لبلالَ وتُعربُ
« نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْرْ »
وأنتَ الفاقِهُ معنى الطاعةِ
كان جوابُكْ .
ما أنا مِمَّنْ يعصي
فاصنعْ ما يبدو لكْ
يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ
يا خالدُ
« إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ »
« وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ »
« ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا »
يا تمرًا أيْنَعَ في شجرِ النُّصْرَةِ
والفتحِ الأعظمِ .. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ

يا خالدُ
كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ .. وعرضِ الأرضِ
وعُمقِ الأرضِ
وكنتَ بفضلِ الله مَهيبًا
كنت تودُّ بأنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ .. فوقَ جوادِكَ
في معمعةٍ تشهدُ أنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقيَ بجسمِكِ موضعُ
إلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهِيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ .. تُرَفرفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى الله مُنِيبًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك .. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ

تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينزِفُ فوقَ الثَّلجِ
ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ .. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتِي فاجعةٌ جدًّا
لا أَذْرُعَ فيها .. لا قلبَ .. ولا سِيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجّاةٌ .. تُحْتَضَرَ الآنْ
قتلانا من غير قبورٍ
أبدانٌ من غير رؤوسٍ .. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ

في سيفِك بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا
لا نملكُ ثَمَنَ الأكفانْ

* * *

يا خَالِدُ
يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ
وأختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيفَ أصُولْ
سامحني
لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ
لا أعرفُ كيف أُميِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ
قد أضحتْ كلُّ خيانات الأرضِ بأرضي فاكهةً
سامحني .. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ
يا خَالِدُ
في هذا الزمنِ المخبولْ
أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروقِ على أسْمالِكْ
مِن أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً
ما حيلةُ منْ وُلِدَ بعَتَبَاتِ الخِزْي
المُنْخَنِسِ الضّائعِ

ما شَرُفَ المِيدانُ بحافِرِ خيلِكَ .. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ
فاسْمَحْ لِيْ
أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلِكَ لتصيرَ شِعَارًا
لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبِلِ إنْ شاءَ اللهُ[1]

الصحابي المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْباني ، البطل الذي جرَّأ المسلمين على قتال الفُرس :

وامُثنَّاه ! ولا مثنّى اليوم للخيل .. وامُثنَّاه ! ولا مثنّى للمسلمين اليوم :

يذكر التاريخ للمثنى أنه « كان أول مسلم هاجم الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها »[2] ، فحمل عن المسلمين عِبئًا لم يحمله غيره ، وهو الذي جرَّأ المسلمين على محاربة الفرس ، ورفع معنويات العرب وحطّم معنويات الفرس ، وكانت أعماله العسكرية في العراق مقدمةً لفتحه فيما بعد ، وكانت معركة « البويب » تمهيدًا لمعركة « القادسية » وإيذانًا بانهيار الإمبراطورية الفارسية ، وقد كان شجاعًا إلى أقصى حدود الشجاعة ، مقدامًا إلى أقصى حدود الإقدام ، وقد « أبلى في حروب العراق بلاءً لم يُبْلِه أحد »[3].

في حروب الرِّدَّة :

عندما ارتدَّتْ ربيعة وكانت في البحرين ، ثبت المثنى على الإسلام مع من ثبت من قومه ، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل – ومنهم المثنى – أن يُعينوه على مكافحة المرتدّين حتى يعودوا إلى الإسلام ، فكان المثنى على رأس الذين أعانوا العلاء في مهمته الشّاقَّة ،

---

(١) قصيدة « رسالة إلى سيف الله المسلول » لمحمود خليل – دار الصحوة .
(٢) جمهرة أنساب العرب صـ ٣٠٥ .
(٣) الإصابة ٤ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

وضيّق المثنى الخناق على مَنْ قِبَلَه من المرتدين ، وكان لهم الضربات المميتة ، وأخذَ الطريق عليهم ، ولم يَكْتَفِ بذلك ، بل تابع السير شمالًا على شاطئ الخليج العربي ؛ ليقاوم دسائس الفرس الذين شجَّعُوا المسلمين في منطقة الخليج على الرِّدَّة ، ويقضي على أنصارهم من القبائل والأبناء[1].

في الفتح :

تقدَّم المثنّى بقواته شمالًا من منطقة البحرين ، فقضى على الفرس وعمّالهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين ، حتى وضع يده على « القطيف » و« هجر » وحتى بلغ في تقدُّمه مَصَبَّ دجلة والفرات في الخليج العربي . وتساءل الناس عن هذا القائد الذي يسير من نصرٍ إلى نصرٍ ، وتساءل الصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه قائلًا : « مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعُه قَبْل معرفة نَسَبِه ؟ »[2]. فأجابه سيد أهل الوبر قيس بن عاصم المنقري : « هذا رجل غير خامِلِ الذِّكْر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة »[3].

أُمُهَجِّنَ الشجعانِ والمُزْرِي بهِمْ ... وتَرُوكَ كلِّ شجاعِ قومٍ عَاتِبَا
شادوا مناقِبَهم وشِدْتَ مَناقبًا ... وُجِدَتْ مناقِبُهُمْ بِهِنَّ مَثالِبَا
خُذْ من ثنايَ عليكَ ما أَسْطِيعُهُ ... لا تُلْزِمَنِّي في الثَّنَاءِ الواجِبَا
فَلَقَدْ دَهِشْتُ لما فَعَلْتَ ودُونَهُ ... ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتِبَا
قد عسكرتْ مَعَكَ الأُسودُ عساكرًا ... وَتَكَتَّبَتْ معك الرِّجالُ كتائِبَا
أَسْدٌ فرائِسُهَا الأسود يقودُها ... أَسَدٌ تصير له الأُسُودُ ثعالِبَا[4]

---

(١) قوم من العجم سكنوا البلاد العربية ، واختلطوا بالعرب بالمصاهرة فتعلَّمُوا لغتهم .
(٢) الإصابة (٦ / ٤١) .
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ ، وفتوح البلدان للبلاذري صـ ٢٤٢ .
(٤) من ديوان المتنبي بتصرف .

وجاء المثنى إلى المدينة المنورة لمقابلة الصِّدّيق رضي الله عنه ، وسأله أن يُؤمِّره على رجاله ليُهاجم بهم الفرس في العراق قائلًا : « يا خليفة رسول الله ، استعمِلْني على قومي ، فإن فيهم إسلامًا ، أُقاتِلُ بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو »[١]. فكتب له أبو بكر رضي الله عنه بذلك عهدًا ، فهو الذي « أطمع أبا بكر الصِّدّيق - رضي الله عنه - والمسلمين في الفرس ، وهوَّن أمر الفرس عندهم »[٢].

لله دَرُّه ، فهو بحقٍّ ، كما يقول عنه عمر بن الخطاب : « مؤمِّر نَفْسِهِ »[٣].

واستمر المثنى - رضي الله عنه - على مُهاجمة أهل السواد ، ثم بعث أخاه مسعودًا إلى أبي بكر يسأله المدد ، فأمدّه بخالد بن الوليد ، على أن يتولّى خالد القيادة العُليا ، فلمَّا وصل خالد العراق ، كتب إلى المثنى ليأتيه « فانقضَّ إليه جوادًا حتى لحق به »[٤]. وهكذا تُسارع الرجولة إلى الطاعة !

وعندما وصل خالد إلى العراق ، أُعجِبَ بالمثنى ومقدرته الحربية الفائقة ، فكان خالد يعتمد على المثنى في حرب العراق كلَّ الاعتماد ؛ بصفته من أشجع الرجال أولًا ، وبصفته من أعلم الناس بالفرس ؛ لأن قبيلته من مواطني العراق أيامَ الحكم الفارسي ، زد على ذلك أن المثنى كان أوَّل من خاض المعارك مع الفرس ، فعلم كثيرًا من أحوالهم وأساليبهم ونفسيّاتهم ،

---

(١) الإصابة ٦ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٢ .

وكان المثنى قبل الإسلام حكيم قومه .

مـع خـالد :

قَاتَلَ المثنى تحت لواءِ خالدٍ في كلّ معاركه التي خاضها في العراق ؛ تارةً تحت قيادة خالد المباشرة ، وتارة قائدًا مستقلًا . فبعد معركة « كاظمة » التي انتصر فيها المسلمون على الفرس ، أمر خالدٌ المثنى أن يُطارد المنهزمين من الفرس ، فطاردهم المثنى مطاردةً حاسمةً ، كأنّما يريد ألّا يتركهم قبل أن يبلغ المدائن[١] . وكان رضي الله عنه مع خالد في معركة المـزار ، وهو الذي راقب الجيش الفارسي ورصدَ حركاته لخالد . وبعد فتح الحيرة والأنبار ، أرسله خالد لمهاجمة « سوق بغداد » فأغار عليه وهزم المدافعين عنه[٢] . ولمَّا ورد أمْر أبي بكر إلى خالد بالحركة إلى أرض الشام لمقاتلة الروم ، وأن يأخذ نصف الناس ، ويستخلف المثنى على العراق في نصف الناس ، أحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه ، واستأثر بهم لنفسه ، تاركًا للمثنى مثْل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صُحبة ، واستأثر لنفسه أيضًا بمن كان قدم على النبي ﷺ وافدًا ، فأبى المثنى وقال : « والله لا أُقيم إلّا على إنفاذ أمر أبي بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ » . فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه[٣] .

المثنّى القائد العام :

الصديق أعطى القوسَ باريها :

كان الموقف العسكري في العراق عند مغادرة خالد له خطيرًا للغاية ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٨ .
(٢) الطبري ٢ / ٥٨٤ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٥٦ ، والطبري ٢ / ٦٠٥ .

فقد كانت قوات المثنى قليلة بالنسبة لقوات فارس ، وكانت خطوط مواصلاته بعيدةً بالنسبة لخطوط مواصلات الفرس ، أمّا المشاكل الداخلية في بلاد الفرس ، فقد أصبحت أقلّ من السابق بعد اتفاق الفرس على رفع « شهر براز ابن أزدشير » إلى العرش ، فلمَّا اطمأنّ الأمر له ، كان إجلاء المسلمين عن العراق أوّل ما استقرَّ عليه عزمه . ولعلّ شعور خالدٍ بخطورة الموقف في العراق ، هو الذي دفعه إلى ترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة ، قبل سفره إلى الشام . وبلغ المثنى أنباء حشْد فارس لمهاجمة قواته ، فسار حتى بلغ بابل ، وانتظر هناك عشرة آلاف مقاتل فارسي يقودهم « هرمز جاذويه » .

معركة بابل أواخر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة هجرية ، المثنَّى قاتل الفيل :

كتب ملك الفرس « شهر براز » إلى المثنى رسالة قبل المعركة ، تدلّ على كبرياء سخيفة ممقوتة ، تحمل كل معاني الاستخفاف بالمثنى وجيشه ، ونسي أن هذا الجيش ، على قلَّة عدده هو الذي أنْزَلَ أشنع الهزائم بما يقرُب من نصف مليون مقاتل فارسي في معارك متفرِّقة ، وهو في كل معركة لا يزيد على عشرين ألفًا ، فكتب ملك الفرس إلى المثنى : « من شهر براز إلى المثنى ، لقد بعثتُ إليك جندًا من وخش[1] أهل فارس ، إنما هم رُعاة الدّجاج والخنازير ، ولست أُقاتلك إلَّا بهم » . فردَّ عليه المثنى : « من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أَحَدُ رجُلَيْن ، إمّا باغٍ ، فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا ، وإمَّا كاذبٌ ، فأعْظَمُ الكذَّابين عقوبةً وفضيحةً عند الله في الناسِ الملوكُ ، وأمَّا الذي يدلُّنا عليه الرأي ، فإنكم اضطررتم إليه ، فالحمد لله الذي ردَّ

(١) أي من أسقاطهم وأراذلهم .

كيدكم إلى رُعاة الدّجاج والخنازير »[1]. وتشاءم الفرس من جواب المثنى وقالوا : إنما أُتي « شهر براز » من شؤم مولده وشؤم منشئه ، وقالوا له : جرّأتَ علينا عدوَّنا ببعْث الكتاب إليه . وجعل المثنى على ميمنة جيشه أخاه المعنّى بن حارثة ، وعلى ميسرته أخاه مسعود بن حارثة ، وكان أكثر جنده من قومه شيبان وبكر بن وائل ، فاستماتوا في القتال . وكان جلُّ اعتماد الفرس لتمزيق صفوف المسلمين على الفيل المدرَّب على القتال ، وبدأت المعركة عنيفةً فاشيةً شديدةً ، وكان الفيل مدرّبًا أحسن تدريب على القتال ، وفرّق صفوف المسلمين ، وكان لا يقف في وجهه شيءٌ ، فخشي المثنى أن يكون لمساندة هذا الفيل لجيش فارس تأثيرٌ سيِّئ خطير على جند الإسلام ، الذي أربك هذا الفيل صفوفه ، فسارع المثنى نفسه وفئة من المغاوير إلى الفيل ، حتى أصابوا من الفيل مقتلًا ، فخسر الفرسُ – والمعركةُ على أشدّها – أهمَّ مُسانِدٍ لهم ضد المسلمين ، ولم يكد الفيل يقع على الأرض حتى جزع الفرس جزعًا شديدًا ، ثم تحوّل جزعهم إلى هزيمةٍ كاملة ، فشرعوا في الهرب وسيوفُ المسلمين تأخذهم من كل جهة . واستطاع المسلمون أن يُبيدوا المشاة عن آخرهم ، أمّا الفرسان من الفرس فقد أركضوا خيلهم هاربين ، فطاردهم فرسان المسلمين ، فصاروا يأسرون ويقتلون مَنْ يقدرون عليه ، وطالت مطاردة المثنى لهم ، حتى وصل في مطاردتهم أبواب المدائن ، وفرَّ « هرمز جاذويه » من الميدان ، وشاع خبر موت الملك « شهر براز » في أثناء هزيمة الفرس ، فزادهم خبالًا على خبال . قال عَبْدَةُ بن الطَّيب عن هذا اليوم :

حلَّتْ خُوَيْلَةُ في حيٍّ عهدتُهُمُ ... دونَ المدائِنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ
يُقارِعون رؤوسَ العُجْمِ ضاحيةً ... منهمْ فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٦٠ .

وقال الفرزدق مُثنيًا على المثنى :

وبيتُ المُثنّى عاقِرِ الفيلِ عَنْوَةً بِبَابِلَ إذْ في فَارِسٍ مُلْكُ بابِلِ

وكتب المثنى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بانتصاره ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الرِّدَّة ، بل غادر المثنى العراق إلى المدينة ليُخبر الصِّدّيق خبر المسلمين والفرس ، فوصل إليها قبل موت الصّدّيق بيومٍ واحد ، وأوصى الصِّدّيقُ عمرَ بن الخطاب بأن يندب الناس مع المثنى . ولمَّا مات الصِّدّيق ، أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه ، فاستنفر الناس للانضواء تحت لواء المثنى ، وأحجم الناس عن قتال الفرس ، وكان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب ؛ لِمَا عُرفوا به من عنادٍ وصبرٍ في القتال ، ولشدّة سلطانهم وعزِّهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم . وقام المثنى يهوِّن من أمر الفرس ، فقال في مسجد رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، لا يعظُمَنَّ عليكم هذا الوجه – أي الفرس – فإنَّا قد بَحْبَحْنَا رِيفَ فَارس ، وغلبناهم على شقّي السّواد ، وشاطرناهم ونِلْنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبَلَنَا عليهم ، ولها ما بعدها إن شاء الله »[1]. فتوالى المتطوِّعون حتى بلغوا ألف رجُلٍ من المدينة المنورة فقط ، وعاد عمر إلى نَدْب الناس إلى العراق قائلًا : « أين الطُّرَآء المهاجرون عن موعود الله ؟! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثكموها ؛ فإنه قال : ﴿ **ليُظهره على الدِّين كله** ﴾ [التوبة : ٣٣] . والله مظهر دينه ومعزّه وناصره ، ومُوَلِّي أهله مواريث الأمم ، أين عبادُ الله الصالحون ؟! » . وهنا قام أبو عبيدة ابن مسعود الثقفي فقال : أنا لها . وقال عمر : « والله لا أُؤمِّر عليكم إلَّا أوَّلهم انتدابًا » . فأمَّر أبا عبيدة على المثنى ومن معه ، فسمع المثنى وأطاع

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣١ ، والكامل ٢ / ١٦٦ .

بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ صافٍ . قال عمر بن الخطاب : « يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعْلَم بالرِّجال مني » . وقد كان عَـزَلَ خالد بن الوليد والمثنى وقال : « إني لم أعزلْهما عن ريبةٍ ، ولكنّ الناس عظَّموهما ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليهما »[1].

كان الصِّدِّيق معجبًا بالمثنى إعجابه بخالد بن الوليد ، وكان يراه لا يقلّ عن خالدٍ في كفاءته الحربية ، وبلغ المثنى الذّروة من المجد وعلوّ الصِّيت ، وكان كخالدٍ ؛ لم ينهزم في معركةٍ واحدة ، ولم تنكَّس له راية .

رجل العراق الأوّل يُفوِّت على الفرس إبادة المسلمين ، وينسحب منه دون علمهم :

وصل إلى المثنَّى من استخباراته أن « رستم » قائد الفرس يؤلِّب أهل العراق والفرس ، من أعالي الفرات إلى مَصَبِّه ، وأن السّواد بعد اشتعال ثورته ضد المسلمين سيطوِّق جيش المسلمين ، ويُبيده بالتعاون مع ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس ، وكان هدف رستم قطْع خطوط الرَّجعة على المسلمين ، واحتلال الحيرة ثم إبادتهم ، ولا سيّما أن قوات المسلمين مبعثرة في نواحي العراق ، وكانت خطة رستم تقضي بالإيعاز إلى أهل كل بلدةٍ أو موقعٍ ، من الفرس أو العرب المُتَنَصِّرة ، بأن يشغبوا ويثوروا على حاميات الإسلام ، وَوَعَدَهم بالمدد السريع من الجيش ليُبيدوا هذه الحاميات ؛ كل حامية على حدةٍ ، ولكن المثنَّى العبقري أفسد على رستم خُطّته ، فقد أرسل البريدَ العاجل خفيةً أمرًا إلى جميع المسالح والحاميات والمواقع وفصائل الاستخبارات خارج الحيرة ، بأن تترك مواقعها وتتحرك بأسرع ما يمكن إلى الحيرة ، ودهش رستم عندما وجد اللّيث الهَصُور والعبقري الخبير « المثنَّى » قد سبقهُ ، وسَحَبَ كل جندي

(١) الكامل ٢ / ١٩١ .

إلى الحيرة ، ثم انسحب من الحيرة بكامل جيشه إلى حدود شبه الجزيرة ، دون أن تعلم مخابرات الفرس إلَّا بعد أن وصلها أن المثنى أنهى انسحابَهُ إلى خفان دون أن يخسر مقاتلًا واحدًا ، فتألّم رستم ، وعلم أنه أمام قائد من أعظم قادة العالم . ولما وصل أبو عبيدة إلى خفان ، وأقرَّ المثنَّى على ما صنع ، عَلِمَ أن الفرس نزلوا « النمارق » فسار إليهم بقوات المسلمين ، وجعل المثنى على الخيل ، فاقتتل الطرفان قتالًا شديدًا ، وانهزم الفرس أمام المسلمين ، ووقع قائدهم « جابان » أسيرًا .

مائة ألف لا يصمدون أمام تسعة آلاف .. يا لله !!

والتقى المسلمون بالفرس بعدها في معركة « السقاطية » فانتصر المسلمون بعد قتالٍ شديد ، فأقام أبو عبيدة بناحية « كسكر » وسرَّح المثنى إلى « باروسما » وسرّح غيره من القادة يُغيرون على تلك النواحي ، ويُخضعونها للمسلمين . والتقى الطرفان في معركة « الجالينوس » فانهزم الفرس أيضًا ، وقدم المثنى الحيرة ، واستقرَّ بها . ووجَّه أبو عبيدة المثنى إلى « زندورد » فوجدهم قد نقضوا فحاربهم وانتصر عليهم .

معركة الجسر ، وتُعرف أيضًا بالمروحة ، والقرقس ، وقس الناطف :

حشد الفرس جيشًا عظيمًا بقيادة « بهمن جاذويه » فعبر إليه أبو عبيدة بجيشه ، مُخالِفًا من كان معه من قادة الجيش ، وقبل نشوب القتال بين الطرفين ، عيَّن أبو عبيدة الأمراء الذين يتولّون قيادة المسلمين من بعده إذا استشهد ، وكان من بين الذين عيَّنهم : المثنَّى ، فلمّا استشهد أبو عبيدة ، واستشهد الذين تعاقبوا على اللواء حَسَب وصيَّته من بعده ، تولَّى المثنى ، وكانت معنويات الناس حينذاك قد انهارت ، فارتدّ كثير منهم إلى الجسر ، يريدون النجاة بأنفسهم ، وغرق في النهر حوالي ألفين استشهدوا كلهم غرقًا . وأقدم عبد الله بن مرثد الثقفي على قطْع الجسر ، وخرَّبه ، ووقف

عند الجسر يمنع المسلمين من محاولة العبور على ما تبقّى من الجسر ، وقال : « أيها الناس ، موتوا على ما مات عليه أُمراؤكم ، أو نظفر » . فضربَهُ المثنى ؛ إذ كان في نسْف الجسر إبادةٌ كاملة لجيش المسلمين . وحدث فعلًا ما يُشبه المعجزة ، وسارع البطل المغوار ، الذي لا تعرف نَفْسُه الجزع « المثنى » ومعه أبطالٌ من المسلمين لإصلاح الجسر ، ومقاتلة الفرس الذين احتشدوا بقصد منْع إصلاحه ، وكان معه : عروة بن مسعود ، وعاصم بن عمرو ، ومذعور بن عدي ، والكلج الضَّبّي ، وعروة بن زيد الخيل ، وسليط بن قيس الأنصاري ، وطَلَبَ المثنى من هؤلاء أن يكونوا إلى جانبه ؛ لمقاتلة الفرس الذين أوكل إليهم « بهمن جاذويه » منْع المسلمين من العبور ، إن هم تمكّنوا من إصلاح الجسر . ونادى المثنى الذين تمكّنوا من العبور إلى الشاطئ الغربي ، أن يأتوا في الحال بخبراء من الفرس ممن هم في ذمتهم وصُلْحهم ؛ لإصلاح الجسر ، فأُحضروا في الحال ، فقام هؤلاء العجم في الحال بإقامة الجسر ، وفي الوقت نفسه كان المثنى ومن معه من الأبطال ، الذين اختارهم حماة له ، يقاتلون الفرس الذين كلّفهم « بهمن جاذويه » بمنْع المسلمين من العبور ، فقد قاتلهم المثنى ورجاله في شجاعةٍ تفوق الخيال ، فأعملوا فيهم السيوف باستماتةٍ حتى دحروهم ، وأفسحوا المجال للمنسحبين أن يعبروا إلى الشاطئ الغربي ، وسقط كثيرٌ من مفارز الحماية الأبطال ، الذين كانوا يحمون المثنى وهو يُشرف على إصلاح الجسر ، وجرح المثنى نَفْسُه جرحًا مميتًا عند الجسر ، ولكنّه رَبَطَه ، وبرز البطلُ الأسد الهصور الجريح على صهوة جواده عند الجسر كالطّود ، ودمه الطاهر يسيل ، وقف يصيح بالمسلمين ؛ يطلب منهم الانسحاب عبر الجسر : « أيها الناس ، أُناديكم فاعبروا على هيِّنتكم[1] ،

---

(١) على مهلكم .

ولا تدهشوا ، فإنَّا لن نُزايل[1] حتى نراكم في الجانب الآخر » . وهكذا بفضل الله ، ثم بشجاعة وثبات وتدبير المثنى ، تمَّتْ عملية عبور الجيش المسلم ، ونجا ستة آلاف من موتٍ كان محقَّقًا لو لم يوفِّق اللهُ المثنى لإصلاح الجسر والثبات عنده ، الذي دفع حياته الغالية ثمنًا لإصلاحه والثبات عنده ، فقد مات رضي الله عنه بعد أكثر من شهرين ، متأثِّرًا بجرحه الخطير ، ولكن قبل موته منَّ الله عليه بالنصر وشفى غليله من الفرس .

بعد معركة الجسر ارفضَّ عن المثنى ألفان ، واصلوا هزيمتهم حتى وصلوا المدينة ، وخجل ألفٌ من أبناء البادية ، فاختفوا خجلًا في باديتهم ، وبقي مع البطل الجريح « المثنى » ثلاثة آلاف . وفي اليوم الثاني لمعركة الجسر ، ظنَّ الفرس أن معركة الجسر ساحقة ماحقة ، وما دروا أن الأسد كامِنٌ في مربضه ، وخرج الفرس يتنزَّهون ، ولما علم المثنى بذلك ، خرج في جريدةٍ من الخيل ، في اتّجاه « أُلَّيْس » حيث المكان الذي يتنزّه فيه اثنان من كبار قُوّاد فارس « جابان ومرادنشاه » في حرسهما ، وهجم عليهما المثنى ، فلم يُفيقا من صدمة الدهشة إلَّا وهما أسيران في يد المثنى ، وقتلهما وهو يقول لهما : « أنتما غرّرتُما بأميرنا وكذبتماه واستفززتماه » . وضربَ أعناق حرسهما جميعًا .

معركة البويب ثالث عشر من رمضان ، وقتل مائة ألف فارسي فيها :

تتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، وحشد المثنى جيشه في « البويب » وكانت عدَّة الجيش اثني عشر ألفًا ، بينما جَمَعَ « رستم » جيشًا عظيمًا ، جَعَلَ قيادته لمهران بن باذان ، وكان قائدًا محنَّكًا شجاعًا ماهرًا ، وكانت عدّة جيش الفرس مائة ألفٍ من الفرسان ، وخمسين ألفًا من المشاة .

---

(١) أي لن نتحرك من أماكننا حتى نحمي عبوركم .

ونزل ببَسُوسْيَا فقال المثنى : « أكْدَى مهران وهلك ، نزل منزلًا هو البسوس » . وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إمّا أن تعبروا إلينا ، وإمّا أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : « اعبروا أنتم » . فعبر مهران بجيشه ، وعبّأ المثنى أصحابه ، وكان الوقت رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم ؛ فأفطروا وخرج المثنى على فرسه « الشّموس » ، وكان لا يركبه إلا لقتالٍ ، وطاف راكبًا بين الصفوف ؛ يَحُضُّهم ويُحرِّضهم ، ويهزُّهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً ، ويقول : « إني لأرجو ألّا تُؤتى العرب من قِبَلِكم ، والله ما يسرُّني اليوم شيء لنفسي إلا وهو يسرُّني لعامّتكم »[1]. ولقد أنصفهم في القول والفعل ، وخالط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال المثنّى : « إني مكبِّرٌ ثلاثًا ، فَتَهَيَّئُوا ، ثم احملوا مع الرابعة » . ولكنّه ما كاد يكبِّر التكبيرة الأُولى ، حتى أعجل الفرس المسلمين وعاجلوهم وشدُّوا عليهم ؛ فاختلَّتْ بعض صفوف المسلمين من بني عجل ، فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا المسلمين اليوم » . فاعتدل بنو عجل ، وهاجموا قوات فارس ، واشتبك الطرفان في قتالٍ مرير ، ففكّر المثنى بأن يحمل بنفسه على قائد الفرس ، فيُزيله عن مكانه أو يقتله ، فحمل على « مهران » حملةً صادقةً حتى دخل ميمنته ، ورأى الفرس ما حدث ؛ فاندفعوا لحماية قائدهم ؛ وعندما انكشف الغبار ، رأى المسلمون تراجُعَ قلبِ الفرس ، فحملت ميمنةُ المسلمين وميسرتُهم ، فسارع الفرس إلى التَّراجُع نحو النهر ؛ خوفًا من التطويق ، يريدون النجاة بأنفسهم .

---

(١) الطبري ٢ / ٦٤٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

لقد كان المثنَّى قائدًا عميقًا في علم النفس العسكري ، قبل أن يخُطَّ أي أستاذٍ متخصِّص في هذا العلم بقرون ، فيقول - رحمه الله - لجنده محرِّضًا ، لَمَّا رأى ما رأى من الفرس : « عاداتكم في أمثالهم : انصروا الله ينصركم » . ثم سابَقَ المثنى الفرس المنسحبين إلى الجسر ، فسبقهم إليه وقطعه ، وبذلك قطع خطَّ رجعتهم الوحيد ، وكبّدهم مائة ألف قتيل ، وترك المثنى أخاه مسعود بن حارثة شهيدًا ، فقال المثنى : « أيها الناس ، لا يَرُعْكم مصرعُ أخي ؛ فإن مصارع خياركم هكذا . والله إنه ليهوِّن عليَّ وجْدي أن شهدوا « البويب » . أقْدَمُوا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان في الشهادة كفّارة لتجوز الذنوب »[١]. وقال المثنى بعد المعركة : « قد قاتلتُ العرب والعَجَم في الجاهلية ، والله لمائةٌ من العجم في الجاهلية ، كانوا أشدَّ عليَّ من ألفٍ من العرب ، ولمائةٌ اليوم من العرب أشدّ عليَّ من ألفٍ من العجم ، إن الله أذْهَبَ بأسهم ووهَّن كيدهم ، فلا يَرُوعَنَّكم زهاء[٢] ترونه ، ولا سوادٌ[٣] ولا قسيّ فجّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهتْ »[٤].

لله دَرّك يا مثنّى وأنت تقول عن الفرس : إنهم « كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهت » . لله دَرُّك وأنت تقول لرجالك في المعركة ، لما أتى الفرس وصيحاتهم في المعركة تهدر : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وَأْتَمِرُوا همسًا » .

واستمرَّتْ مطاردةُ المسلمين فلولَ المنهزمين يومًا وليلةً ، وترك

---

(١) الطبري ٢ / ٦٥٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .
(٢) منظر .
(٣) كثرة .
(٤) الطبري ٢ / ٦٥٠ - ٦٥١ .

الفرسُ مائة ألفٍ ، حتى صاروا جثثًا « فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمّةً منها . وحدّثني بعض من شهدها : والله إنّا كُنّا لنأتي البويب ، فنرى فيما بين موضع السكون عظامًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يُعْتَبَر بها »[1]. وقال عطية بن الحارث : « وأفعموا جنبتي البويب عظامًا حتى استوى ، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة ، وما يُثار هناك شيء إلا وقعوا منها على شيء » . وأمر المثنى رجاله بالاندفاع في مطاردة الفرس ، ففتحوا السّواد كله حتى بلغوا ساباط ، وقُتل في المعركة قائد الفرس مهران ، وقُتل صاحبُ خيله « شهر براز » .

يقول الأعور العبدي يذكُر معركة البويب :

هاجتِ الأعورَ دارُ الحيِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعدَ عبدِ القيسِ خفَّانا
وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجتمِعٌ ... إذْ بالنَّخيلة قتلى جُندِ مهرانَا
أزْمَانَ سار المُثَنَّى بالخيولِ لهمْ ... فَقَتَّلَ الزَّحْفَ من فُرسٍ وجيلانَا
سما لمهرانَ والجيشِ الذي معه ... حتى أبادهموا مثنًى ووُحْدانَا
ما إنْ رأيْنا أميرًا بالعراق مضى ... مِثْلَ المثنَّى الذي من آلِ شَيْبَانَا
إن المُثَنَّى أميرُ القومِ لا كَذِبٌ ... في الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفَّانَا

لقد كان نصر المسلمين في البويب ، مثل انتصار المسلمين في اليرموك في الشام ، يعادله تمامًا كما قال ابنُ كثير ، وهو العامل الأكبر الذي أدَّى إلى انتصار المسلمين في القادسية ومهّد له . لقد أدَّى انتصار اثني عشر ألفًا من الأبطال ، وإبادتهم لأكثر من مائة ألفٍ من الفرس ، كلهم تقريبًا من الفرسان – إلى شحن نفوس زعماء الفرس بالاحتقار والحقد للقادة الكبار ، إلى درجة أنهم هدّدوا هؤلاء القادة بعد البويب بقتلهم ،

(١) الطبري ٣ / ٤٦٧ .

إن لم يبدِّلوا أسلوبهم في مُقاتلة المسلمين .

بين البويب والقادسية :

يرى المعلِّقون العسكريون أنه بالنظر من الوجهة العسكرية المجرَّدة ، أن رجال البويب أتوا بأعظم مما أتى به رجال القادسية . فجيش الإسلام يوم البويب كان اثني عشر ألفًا ، ويوم القادسية ثلاثين ألفًا ، دعَّمهم وصول المدد المتعاقِب ، على رأسه هاشم والقعقاع . وكان معظم جيش الفرس في البويب من الفرسان لا المشاة ، وتمكَّن جيش المسلمين من إبادة مائة ألف من الفرس وأكثر في البويب ، بينما في القادسية أبادوا ثلاثين ألفًا .

وممّا أدّى إلى اشتهار القادسية : أنها كانت بقيادة « رستم » الرجل الأوَّل للفرس ، وقُتِل فيها ، وعنفُ المعركة واستمرارها بدون انقطاعٍ ثلاثةَ أيامٍ متوالية ، وتمكُّن العرب بعد القادسية من تطهير العراق العربي نهائيًّا من العنصر الفارسي بعد سقوط المدائن ، ونَقْل المعركة إلى بلاد فارس ، ولم تقُم للفرس قائمة بعد « نهاوند » .

الغارة على أسواق الفرس في الخنافس وبغداد :

كانت الغارة على الأسواق شمالي العراق استغلالًا رائعًا لمعركة البويب ، لم يكن المثنى قد قرأ عن مبدأ المطاردة ، ولكنّه وضع لنفسه المبدأ كقائد ، وبذلك يُعتبر المثنى من واضعي هذا المبدأ في علم الحرب ، وقد استطاع بكفاءته أن ينفّذه في قوةٍ وعُمقٍ ، بلغ حوالي أربعمائة كيلو مترًا أو يزيد شمالًا ، خلاف ما تبحبحوا به شرقًا وغربًا وجنوبًا .

لقد فتح المثنى على العجم أبعادًا ثلاثة للحرب القائمة بينه وبين الفرس ؛ البُعد الأول هو خطّ المواجهة ، والبعد الثاني هو ما امتدَّ إليه هذا الخط ، فجعله يتَّسِع ويستطيل للحصول على التموين لقواته ، وتشتيت العدو وإرباكه ،

وللتأثير على قادة جيش فارس وشعب فارس . فأغار المثنى في هجومٍ خاطف على هذه الأسواق ، وكان فيها أموال غالية الثمن ، يزيد على ما في خزانة بيت مال كسرى ، وأصاب المسلمون فيها من الذهب والفضة ما كان غَناءً للمسلمين ، وقوّةً لهم على عدوّهم دهرهم . وقال أحد جنود المثنى : ما أسرع القوم في طلبنا ! فقال الرجلُ القمة ، أستاذُ الحروب لأبطاله – بعد أن أغاروا على سوق الخنافس وبغداد وعادوا في يومٍ واحدٍ ، وبعد أن أوغلوا في غاراتهم حتى العُمق ، وكان بينهم وبين المدائن ثلاثون كيلو مترًا – : « تناجوا بالبرّ والتقوى ، ولا تناجَوْا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدِّروها ثم تكلَّموا ، إنه لم يبلغ النّذير مدينتهم بعدُ ، ولو بلغهم لَحَالَ الرُّعب بينهم وبين طَلَبِكم . إن للغارات روعاتٍ تنتشر عليها يومًا إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ، ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف البطاء ، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم . ولو أدركوكم لقاتلتُهم لاثنين : التماس الأجر ، ورجاء النصر . فثِقُوا بالله وأحْسِنُوا به الظَّنّ ، فقد نصركم في مواطن كثيرة وهم أَعَدُّ منكم ، وسأُخبركم عني وعن انكماشي والذي أُريد بذلك ، إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلِّل العرجة ، ونُسرع الكرَّة في الغارات ، ونُسرع في غير ذلك الأَوْبَةَ » .

يقول المثنى :

صبَّحْنَا بالخنافسِ جَمْعَ بكرٍ ... وَحَيًّا من قُضاعةَ غير مِيلِ
بفتيانِ الوَغَى من كلِّ حيٍّ ... تَبَارَى في الحوادثِ كلُّ جِيلِ
أَبَحْنَا دَارَهُمْ والخيلُ تَرْدَى ... بكلِّ سَمَيْدَعٍ سامي التِّلِيلِ

ورأى المثنَّى أن لا يعود إلى مقر قيادته في الحيرة ، إلَّا بعد أن تشمل غاراته شمال العراق ، وأن يؤدِّب بني تغلب في الكباث في شمال العِراق ،

وأكثر المسلمون فيهم القتل . لقد نجح – رضي الله عنه – في غاراته على الشمال ، حتى وصل في فتوحاته إلى ما لم يصل إليه القائد العظيم خالد . وزيادةً في التنكيل بأعداء الله وأولياء الفُرس ، أغار في صفّين على أحياء من عرب تغلب والنمر والنصارى ، فلمّا اقتربوا من صفين هرب أهلها ، فتبعهم المسلمون ، حتى رموا بأنفسهم في مياه الفرات وغرقوا ، فجعل المسلمون يقولون لهم : « تغريقٌ بتحريق » . فصارتْ مَثَلًا .

هذا هو المثنى بطل المعارك ، وبطل حروب الاستنزاف بعد المعارك ، أعظم أساتذة الحرب في العالم – وُلد ونشأ وترعرع في العراب بين مضارب البادية ، على متون الخيل بين المضارب والخيام تعلّم ، ولكنّ أستاذ الحرب البدوي علّم الدنيا بأسرها : وُلد المثنّى بالبادية ، ومات في البادية ، وطواه لَحْدٌ تحت رمال البادية ، غازيًا للدنيا بسيفه ، عَزُوفًا عنها بقلبه ، ليس له إلّا « الشموس » جواده ، لا يركبه ويُذلِّله غيرُهُ ، ولا يركبه إلا للغزو

هذا جوادُكَ في الميدانِ مُنطلِقُ ... وبينَ عَينيْهِ من إصرارِهِ أَلَقُ
صَهيلُهُ نَغَمٌ يُصغي الزَّمَانُ له ... وَنَقْعُهُ لحجابِ الشّمسِ يخترقُ
وَسَرْجُهُ همهماتٌ لا يُخالطها ... زَيْفٌ ولا يَرتمي في حِضْنِهَا نَزَقُ
تشدو حوافِرُهُ لَحْنًا يَهشُّ له ... قلبُ التّرابِ وتسترخي له الطُّرُقُ
يُسابِق الرِّيحَ في دَرْبِ الإباءِ وَكَمْ ... خَيل سِوَاهُ إلى الأهواءِ تستبِقُ
هذا شَمُوسُك يجري النُّورُ في دمِهِ ... وتَشْـرَئِبُ إلى غَـارَاتِهِ العُنُـقُ
تَكُفُّ عن وجهِهِ الصَّحْرَاءُ ما حملتْ ... من سيفِهَا ويُناعِي رَكْضَةُ الشَّفَقُ
يُقِضُّ مضجعَ كلِّ الصافناتِ إذا ... ثار الغُبَارُ وطارتْ نحوَهُ الحَدَقُ
مسـافرٌ والأماني البِيضُ لاهِثةٌ ... وراءَهُ وبحارُ الشَّـوقِ تصطفِقُ
إذَا تَلَفَّـتَ غَـنَّى فَجْـرُ غُـرَّتِهِ ... لَحْنَ الضِّياءِ وأرخى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وسافـر الليـلُ مبهـورًا وأعقبَهُ ... فَجْـرٌ تحفَّـزَ لاستقبـالِهِ الأُفُقُ

يا مُورِيَ القَدْحِ آمالي بك انبثقَتْ ... يومَ البويبِ والآمالُ تنبثِقُ
مراكبُ الفرس نامتْ وَهْيَ واقفةٌ ... والرّاكبون عليها من أهوالِكَ انسحقوا
يستأسِدُون عليها وَهْيَ واقفة ... لَمَّا ظهرت جَثَوْا وغارتْ منهمُ الحَدَقُ

انسحب المثنى بقواته إلى تُخُوم الجزيرة العربية ، فنزل بذي قارٍ حتى يأتيه سعد بن أبي وقّاص على رأس المدد لمهاجمة الفرس وإبادتهم . ولكنْ عاجلتْه المنيَّة .. وما نسي البطل الصالح العهدَ إلى سعدٍ وتوصيته ، وما أَشبَهَ لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة لأبي بكر رضي الله عنهما ، كلاهما ترك الدنيا وهو يفكِّر للمسلمين في هذه الفتوح ويوصي بها .

وترك المثنى وصية غالية لسعد : « ألا يقاتل عدوّه وعدوهم من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وماؤهم في عقر دارهم ، وأن يُقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنىٰ حجرٍ من أرض العرب ، وأدنىٰ مدرة من أرض العَجَم ؛ فإن يُظهر الله المسلمين ، فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأُخرى ، رجعوا إلى فئةٍ يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم ، إن يرد الله الكرَّة عليهم »[1]. وأشار المثنَّى على سعدٍ : « أن يُحارب العدو بين القادسية والعذيب »[1]. ومات المثنى قبل أن يرى سعدًا .

وهكذا انطفأ سراجٌ من أشدّ السّرج توهُّجًا ، وأفلتْ تلك الشمسُ المشرقة التي غمرت العراق دفئًا ونورًا .

كالبدرِ من حيثُ التَفَتَّ رأيتَهُ ... يُهدي إلى عَيْنَيْكَ نورًا ثاقبَا
كالبحر يقذفُ للقريبِ جَوَاهرًا ... جُودًا ويبعثُ للبعيدِ سَحائِبَا
كالشمسِ في كَبِد السماء وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى البلادَ مشارقًا ومغاربَا

(١) الطبري ٣ / ١٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٤ .

ولا غرو عندما حمي الوطيس ، واستكلَبَ الموت على الأبطال في القادسية ، هتفتْ سلمى زوجُ سعدٍ – وكان سعد قد تزوَّجها بعد موت زوجها المثنى – حين لم تجد المثنى يسود الأجناد والفرسان للجلاد ، قائلة: «وامثنّاه! ولا مُثنَّى اليوم للخيل»[١]. « وامثنّاه ! ولا مثنَّى للمسلمين اليوم »[٢] ، « القوم أقران ، ولا مثنى لهم »[٣].

ما زال يروي لنا التاريخُ قصَّتَهُ ... فكم حديثٍ على شوقٍ رَوَيْنَاهُ
وكم حديثٍ عن الأحبابِ أطْرَبَنَا ... وزادَنَا طَرَبًا لَمَّا أعَدْنَاهُ
وَقْعُ الحوافر يا بغدادُ أُغْنِيَةٌ ... تراكِ يُنشدها والرَّمْلُ أفواهُ
وحمحماتُ خيولِ النَّصْرِ تُطربني ... الحربُ دائرةٌ والنّاصرُ اللهُ
صهيلُها في دروبِ الحقِّ يملكني ... فكم أذوبُ به وجْدًا وأهواهُ
هذا المثنى يُرَوِّي الأرض من دَمِهِ ... والعينُ في رؤيةِ الأحداثِ عيناهُ
لم يَسْتَعِر مُقلةً أُخرى ولا شَفَةً ... أُخرىٰ ولم تُصغِ للتَّضليلِ أُذْنَاهُ
كيانُكِ الضَّخْمُ يا بغدادُ حصَّنَهُ ... سيفُ المثنى ونورُ الحقِّ جَلَّاهُ
النّورُ فوق ذراعِ الشَّمْس صبَّحَهُ ... والنّورُ فوق ذراعِ البدرِ مسَّاهُ[٤]

القعقاع بن عمرو التميمي فاتح خانقين وحلوان وهمذان :

لا يُهزم جيشٌ فيه مِثْلُ القعقاع . [أبو بكر الصديق] .

الصحابي الجليل ، والفارس المغوار النبيل ، حيدرة الأسود رضي الله عنه .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١ .

(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

(٣) المعارف صـ ١٠٠ .

(٤) من قصيدة : وشم على ذراع بغداد ، من ديوان « يا أمة الإسلام » لعبد الرحمٰن العشماوي – مكتبة العبيكان .

صاحب الخوارق والشجاعة التي يعجز القلم عن وصفها في معارك الفتح الإسلامي .. وما أبْلَغَ وصف أبي بكرٍ للقعقاع : « لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[1].

قال القعقاع : قال لي رسول الله ﷺ : « ما أعددتَ للجهاد ؟ » . قلتُ : طاعة الله ورسوله ، والخيل . قال : « تلك الغاية » .

مع خالد في العراق :

لما احتاج خالد إلى إمداداتٍ ، كتب إلى أبي بكر يستمدُّه ، فأمدّه بالقعقاع ، فقيل لأبي بكر : أتُمدُّ رجُلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجلٍ ؟ فقال : « لا يُهزم جيش فيه مِثْلُ هذا »[2].

في معركة كاظمة ، لما خرج هرمز للقاء خالد ، أنقذ القعقاع خالدًا في هذه المعركة من الموت ، لما احتضن خالد هرمز ، وشدَّ أهل فارس يريدون الغدر بخالدٍ وقتله ، لم يُمهلهم القعقاع ، وحمل عليهم وانقضَّ كالصقر على الحامية ، فأبادهم جميعًا قبل أن يصلوا إلى خالد .

وكان له أكبر الأثر في كل معركةٍ خاضها المسلمون ، يقول في يوم « الولجة » :

ولم أرَ قومًا مِثْلَ قومٍ رأيتُهم ... على وَلَجَاتِ البرِّ أحْمَى وأنْجَبَا
وأقْتَلَ للرّوّاسِ من كلِّ مجمعٍ ... إذا ضَعْضَعَ الدَّهْرُ الجموعَ وكَبْكَبَا

ولما استسلمتِ « الحيرةُ » أرسل خالدٌ قادته ومنهم القعقاع للتَّغلغُل في أرض السواد حتى دجلة ، فنجح القعقاع في مهمته نجاحًا باهرًا . وأصبحت

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٤ .

الحيرةُ القاعدةَ المتقدّمة لجيش المسلمين ، ولما أراد خالد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، استخلف القعقاع على الحيرة ، فحمى القعقاعُ ظهر خالد ، وحافظ على الحيرة قلعة المسلمين المتقدّمة ، وصدَّ هجومًا مقابلًا شنَّته الفرس وحلفاؤهم على المناطق المجاورة للأنبار .

معركة الحصيد ، العاشر من شعبان سنة اثنتي عشرة هجرية :

كان قائد المسلمين القعقاع ، وقائد قوات الحصيد « روزبه » على رأس قوات الفرس وحلفائهم المُتَنَصِّرة ، فهاجمهم القعقاع ، وكان مِثْل خالدٍ ذِكْرُه يُرعِب الأعداء ، وكانت معركة ضارية ، غير أن النصر في النهاية كان حليف المسلمين ، وتوّج القعقاع نصره المؤزَّر بقتْل قائد الفرس زرمهر ، وَقَتَلَ عصمةُ الضَّبّي القائد الثانيَ روزبه ، وقُتِلَ من المجوس وحلفائهم العرب عددٌ كبير . وقال القعقاع :

أَلَا أَبْلِغَا أسماء أن حليلَها ... قضىٰ وَطَرًا من روزمهرِ الأعاجِمِ
غداة أصبْنا في حصيدٍ جموعَهُمْ ... بِهِنْدِيَّةٍ تَفْرِي فراخَ الجماجمِ

وفي « المصيّخ كان القَعقاعُ ، وعبدُ بنُ فدكى السعدي ، وأبو ليلىٰ ابن فدكى ، وعروة بن جعد البارقي : هُمُ القادة الذين تولَّوْا تصفيةَ القواتِ الفارسية والعربِ الموالين لهم – ومتى ؟! بالليل ، إي واللهِ ، بالليل بعد منتصفه ..!!

وفي « الفراض » يقول القعقاع :

لَقِينَا بالفِراضِ جموعَ رُومٍ ... وَفُرْسٍ غمَّها طولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُم لَمَّا التَقَيْنَا ... وَبَيَّتْنَا بجمعِ بني رزامِ

قاتل القعقاعُ تحت لواءِ خالدٍ أيضًا في كلِّ المعارك التي خاضها بعد ذلك ، حتى تحرَّك خالدٌ إلى الشام ، فكان القعقاعُ أحدَ الأبطال الذين

اختارهم خالدٌ ليُعَاونوه في مهمَّته الشَّاقَّة ، وهي فَتْحُ بلاد الشام .

وفي الطريق إلى الشام قَاتَلَ القعقاعُ تحتَ لواءِ خالدٍ في كافَّة المعارك ، حتى التحقَتْ قواتُ العراق بقواتِ الشام .

وفي « فَحْلٍ » أبلَى أعظمَ البلاء ، قال القعقاع :

وغداةَ فحلٍ قد رأَوْني مُعْلَمًا[١] والخيلُ تنحطُّ[٢] والبلا أطْوارُ
يُفدي بلائي عندها مُتَكَلِّفٌ سَلِسُ المياسِرِ عُودُهُ خَوَّارُ
سَلِسُ المياسرِ ما تسامَى ماقِطًا[٣] عند الرِّهانِ مُعَيِّرٌ عيّارُ
ما زالتِ الخيلُ العرابُ تدوسهُمْ في حومِ فحلٍ والهَبَا[٤] موَّارُ
حتى رمَيْنَ سَراتهم عَنْ أسْرِهم في ردغةٍ ما بعدها استمرارُ
يومَ الرِّداغِ بُعَيْدَ فحلٍ ساعةً وخز الرِّماح عليهِمُ مُدرارُ
ولقد أبْرْنا[٥] في الرداغِ جموعَهُمْ طُرًّا ونحويَ تشخصُ الأبصارُ

ويقول رحمه الله :

نحنُ الأُولَى جُسْنا العراقَ بِخَيْلِنَا والشّامَ جُسْنَا في ذُرَى الأشفارِ
كَمْ مِنْ قَمَامِسَةٍ[٦] أبْرنا جَمْعَهُم بعدَ العراقِ وبعدَ ذي الأوتارِ

في حِصَارِ دِمشق :

إلى القعقاع ومذعور بن عدي وخالدٍ يعودُ الفضلُ الأكبرُ في إنهاءِ

---

(١) ذو علامةٍ ، شأن الصناديد .
(٢) النحط : صوتُ الخيل من الثِّقَل والإعياء .
(٣) المأقط : المضيق في الحرب .
(٤) الهباء : الغبار شِبه الدخان .
(٥) قتلنا .
(٦) القَمَامِسَة : البطارقة ؛ كبار الضباط في الروم .

حصار دمشق وفتْحها ؛ فالقعقاعُ ومذعورُ : هما اللذان صَعِدَا على سلالمِ الجبال إلى أعلى السُّور ، وأثبتا بقيةَ الحبال في شرف السُّور ، وهاجم خالدٌ برجاله – وعلى رأسهم القعقاعُ – حُمَاةَ أبوابِ المدينة ، فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب للفاتحين .

في اليرموك :

كان القعقاعُ بن عمرٍو في القلْب على كُرْدُوسٍ من كَرادِيس أهلِ العراق من جيش خالدٍ ، وكان القعقاعُ أحدَ الأبطالِ الذين اختارهم خالدٌ للتأثير على معنويَّات الروم في ابتداءِ معركة اليرموك ، وكان رضي الله عنه يُهاجِم الرومَ على رأس كُرْدُوسِهِ وهو يرتجزُ ، ضاربًا لرجالهِ في الشجاعة والإقدام أَرْوَعَ الأمثالِ . ولمّا أراد خالدٌ أن يقوم بهجومِهِ المُضَادِّ ، أمر خالدٌ عكرمةَ والقعقاعَ – وكانا على مجنبتي القلب – فبدأَا الهجومَ المضادَّ الشامِلَ ، وارتجز القعقاعُ يقول :

يا ليتني ألقاكِ في الطِّرادِ قبلَ اعترامِ الجحفَلِ الورّادِ
وأنتِ في حَلْبتك الورادِ

وقال القعقاعُ بعد المعركة :

ألمْ ترنا على اليرموك فُزْنَا كما فُزْنَا بأيَّامِ العراقِ
فتحْنَا قَبْلَهَا بصْرَىٰ وكانتْ مُحَرَّمَةَ الجَنَابِ لدىٰ العناقِ
وَعَذْرَاءُ المدائنِ قَدْ فَتَحْنَا ومرجُ الصُفّرَيْنِ على العِتَاقِ
قَتَلْنَا مَنْ أَقَامَ لنا وفئْنَا نهابُهُم بأسيافٍ رِقَاقِ
قتلْنا الرُّومَ حتَّى ما تَسَاوىٰ على اليرمُوك ثَفْرُوق الورَاق
فَضَضْنَا جمعَهُمْ لمّا استحالُوا على الواقُوصِ بالبُتْرِ الرِّقاقِ
غداةَ تهافَتُوا فيها فصارُوا إلى أمْرٍ يُعضّلُ بالذواقِ

في العراق ثانيةً :

(١) في القادِسيَّة : القعقاعُ أفرسُ الناسِ ، بشهادةِ سعدٍ :

كان في مقدِّمة قواتِ هاشمٍ التي جاءت من الشام لِنَجْدةِ سعدٍ ، فعجّل القعقاعُ في مسيرته ، حتى وصل العراقَ في صَبِيحةِ اليوم الثاني من أيّامِ القادسية ، وهو يوم « أغواث » ، وقد عَهِدَ إلى أصحابه - وهم ألفُ رجلٍ - أن يكونُوا جماعاتٍ ، كلُّ جماعة مُؤلَّفةٌ من عَشْرَةِ رجالٍ ، ثم تقدَّم القعقاعُ مع الجماعة الأُولىٰ فَسُرَّ الناسُ بقدومه ، وبشَّرهم القعقاعُ بقدوم الجنود ، قائلًا : « يَـٰأَيُّـهَا الناسُ ، إني جِئْتُكُم في قومٍ - واللهِ - لو كانوا بمكانكم ثم أَحَسوّكم حَسَدُوكم حَظْوَتَهَا ، وحاولوا أن يطيروا بها دُونكم ، فاصنعوا كما أصنع »[1]. ثم تقدّم ، فلمّا كان بين الصَّفَّيْن ، نادىٰ : مَنْ يبارز ؟...

لله دَرُّك يا قعقاعُ : تأتي من سفرٍ بعيدٍ مثلِ هذا ، ثم تلتحم لحظةَ وصولِكَ وتبارز ؟! وخرج ذو الحاجب « بَهْمَن » وعرّف القعقاعَ بنفسه ، فقال : إني « بَهْمَـن جاذويْه » . ففارَ الدَّمُ في عروقِ القعقاع ، وصـاح : « يا لثاراتِ أبي عُبيدٍ وسليطٍ وأصحابِ يوم الجسر ! » ، ثم تبارزا بالسُّيوف ، فقتله القعقاعُ ، وكان « بهمن جاذويْه » - قائدُ قلب المجوس في القادسية ، وقـائدُهم يومَ « جِسْـرِ المروحة » - أوَّلَ القتلى يومَ « أغـواث » . وخرج القعقاعُ مرةً ثانيةً ، وقال : مَنْ يُبارز ؟ فخرجَ إليه « بيْرزان » قائدُ مؤخِّرتهم ، فسدّد إليه القعقاعُ ضربةَ سيفٍ قويةً فوقَ عنقهِ ، أَدْرَتْ برأسه . وبرزتْ فرسانُ المسلمين للمبارزة ، فكان القعقاع يقول لهم : يا معاشرَ المسلمين ، باشروهمْ بالسُّيوفِ ؛ فإنما يحصدُ الناسُ بها . وجعلتْ خيلُ القعقاع تَرِدُ جماعاتٍ ، وما زالتْ تَرِدُ إلى الليل ، فترتفعُ معنوياتُ المقاتلين من المسلمين .

---

(١) الطبري (٣ / ٥٢) .

وَحَمَلَ بَنُو عمِّ القعقاع بجماعاتٍ مؤلَّفةٍ كلٌّ منها من عَشْرةِ رجالٍ ، على إبلٍ قد ألبسوها ، وهي مجللةٌ مُبرقَعَةٌ ، وأمَرَهم القعقاعُ أن يُهاجموا بها خَيْلَ الفرسِ ، فجفلتْ خيولُ الفرس تَفِرُّ منها ، وركبتْها خيولُ المسلمين ، فلمّا رأى الناسُ ذلك فَرِحُوا أشدّ الفرح ، إذْ لقي الفرسُ من هذه الإبل أعظمَ مما لقي المسلمون من الفِيَلَةِ في اليوم الأوَّل من أيام القادسية ، وَحَمَلَ القعقاعُ يوم ذاك ثلاثين حملةً ، كُلَّمَا طلعتْ جماعةٌ من جماعاتِهِ حَمَلَ معهم فيها ، فَقَتَلَ وَحدَه يومَهَا من الفرس ثلاثين رجلًا ، وبات القعقاعُ ليلته كُلَّها يُسَرِّب أصحابَه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس ، قائلًا لهم : « إذا طلعتْ لكم الشمسُ فأقبلوا مائةً مائة ، كلَّما توارىٰ عنكم مائةٌ فَلْيَتْبَعْهَا مائةٌ ، فإنْ جاءَ هَاشمٌ فذاك ، وإلَّا جدَّدتم للناس رجاءً وجِدًّا »[1]. وقد نفّذ ذلك دون علْم رجال القادسية الآخرين . وأصبح الناس على مواقعهم ، فلما ذرّ قرنُ الشمسِ ، طلعتْ نواصي خيل رجالِ القعقاع ، فكبّر وكبّر المسلمون ، وقالوا : جاءَ المددُ . فلمّا وصل آخِرُ رجالِ القعقاع ، أخذتْ قواتُ هاشمٍ تترارَد .

القعقاعُ .. قَاتِلُ الفيلِ الأبيض :

ولما عادتِ الفيلةُ تُكَبِّد المسلمين خسائرَ فادِحَةً؛ .. هلْ كَانَ للفيل الأبيض الذي يقودُهَا إلا القعقاعُ وأخوه عاصمٌ ، كما ذكرنا من قبل ؟!

قال القعقاع :

لم تَعرِفِ الخيلُ العرابُ سواءَنا ... عشيةَ أغواثٍ بجنْبِ القَوَادِسِ

عشيةَ رُحْنَا بالرِّماحِ كأنَّها ... على القومِ ألوانُ الطيورِ الرَّسارِسِ[2]

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩ .

(٢) الخيل العراب : العربية الأصيلة . الرسارس : النشيطة .

وفي ليلة الهرير ، وكان القعقاع يتشوَّق للقتال ، ولمّا أصاب سهمُ خالد بن يَعْمُر التميمي ، حَمَل القعقاع بغير إذْنٍ على الجهة التي خرج منها السَّهمُ ، وهو يقول :

فَأَقْسَمتُ لا ينفكُّ سيفي يَحُسُّهُم فإنْ زَحَلَ الأقوامُ لَمْ أَتَزَحَّلِ[1]

فقال سعد : اللهمَّ اغفرها له وانصرْه ، قد أذنتُ له إذْ لم يستأذِنِّي ، واتميماهُ ! سائرَ الليلة . وفعَل الناسُ ما فعَل القعقاع ، فاشتدَّ القتالُ ، وَحَمِيَ وَطِيسُهُ كلَّما تقدم الليل ، وما كاد الليل ينتصف ، إلَّا وَسَمِعَ سعدٌ صوتَ القعقاع يهدرُ ، مرتجزًا :

نحنُ قتلنا معشرًا وزائِدا أربعةً وخمسةً وواحدا
نُحسَبُ فوقَ اللّبدِ الأَساودا حتى إذا ماتُوا دعوتُ جاهِدا
اللهَ ربي واحترزتُ عامِدا

وكان صوتُ القعقاع أوَّلَ ما استدلَّ به سعدٌ على الفتح[2].

وتنفَّس الصبحُ عن هذه الليلةِ الدامية ، فسار القعقاعُ في الناس يقول : « إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلُوا ؛ فإنَّ النصر مع الصبر »[3].

ولما انهزم الفرس ، طاردَهم القعقاعُ بأمْرِ سعد وأوقع بهم خسائرَ فادِحَةً ، وانتصر المسلمون في القادسية .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعدٍ : « أيّ فارسٍ كان أفرسَ في

---

(١) يَحُسُّهم : يقتلهم ، وزحل : يعني هرب .
(٢) الطبري ٣ / ٦٧ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

القادسية ؟ » فكتب إليه سعدٌ : « إني لم أرَ مثلَ القعقاع بن عمرو ؛ حمَل في يومٍ ثلاثين حَمْلةً ، يقتل في كلِّ حملةٍ بَطَلًا »[١].

(٢) في المدائِن : القعقاعُ قائدُ الكتيبةِ الخَرْسَاء :

لما قرَّر سعدٌ عبورَ النهر على ظهور الخيل لفتْح المدائن ، فكان أول من عبَر النهر كتيبةُ الأهوالِ ، على رأْسِهَا عَاصِمٌ ، ثمّ كتيبةُ القَعْقَاعِ ، المسمَّاةُ بالكتيبة الخرساء .

وبعد انتصار المسلمين كان القعقاع على رأس قُوَّاتهم المطارِدَةِ للفُرس ، فوجد فارسيًّا يحمي انسحابَ الفرسِ فقتله ، فإذا مع المقتول أحدَ عشرَ سيفًا ودروعٌ ، بينها سيفُ وَدِرْعُ كِسرى ، وهُرْمُز ، وَهِرقَل ، وخاقَانَ ، والنعمان ، وغيرهم من الملوك والأمراء والقادة ، فغنِمَهَا القعقاعُ[٢].

(٣) في جَلُولاء : قَعْقاعية جديدة ، وقَتْلُهُ لمهرانَ قائدِ الفرس :

كان القعقاعُ على مقدّمةِ قوات هاشمٍ التي حاصرت القوات الفارسية ، وطال الحصارُ ثمانين يومًا . وَزَحفَ القعقاعُ برجاله ، حتى انتهى إلى بابِ خندق الفُرس ، فدخل الخندقَ واحتلَّ قِسْمًا منه ، وأمَرَ مُناديًا ينادي : يا معاشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل الخندق ، وأخذ به ، فأقبِلُوا إليه ولا يمنعنَّكم مَن بيْنكم وبيْنه مِن دخوله . وقد أمَر القعقاع بذلك ليقوِّيَ معنوياتِ المسلمين ، وفعلًا حَمَلَ المسلمون ، وهم لا يشكُّون أنَّ هاشمًا في الخندق ، فإذا هم بالقعقاعِ قد احتلَّ قِسْمًا من الخندق ، وبذلك انهزمَ الفرسُ[٣] ، ولكن القعقاعَ طاردهم حتى بلغ « خانقين » ، ثم دخل « حُلوان » ، وقصر

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .

(٢) الطبري ٣ / ١٢٨ ، والإصابة ٥ / ٢٤٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٢٠١ .

« شيرين » . وأثناء المطاردة لَحِقَ القعقاع بمهرانَ القائد الأكبر في « جلولاء »، وقتله في « خانقين » .

إلى الشام ثانيةً :

ولما حشدَ هِرقلُ ملك الروم قواتٍ كبيرةً ، وأقبلت قواتُه من الجزيرة ومن بلاده برًّا ، ومِن الإسكندرية بحرًا ، تحرّك القعقاعُ على رأس أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ لنجدة أبي عبيدة ، وفرّ الناسُ ، وبقي الروم وحْدَهم ، فقاتَلهم المسلمون وانتصروا عليهم ، قَبْل أنْ يبلغ القعقاعُ « حمصَ » بثلاثة أيام ، فكتب عمرُ إلى أبي عبيدةَ كَي يُشْرك أهلَ الكوفة في العطاء ، قائلًا : « جزىٰ الله أهلَ الكوفة خيرًا ؛ يَكفون حوزَتَهم ، ويَمدُّون أهلَ الأمصار ! » .

وعاد القعقاعُ بجنوده إلى العراق رافعًا اسمَهم عاليًا بين الفاتحين .

في بلادِ فارس : نَهاوندُ فتْحُ الفتوح ، وقتْلُ القعقاعِ للفيْرزانَ قائدِ الفُرس : « إن للهِ جنودًا مِن عَسَلٍ »

قاتل القعقاع في معركة « نهاوند » تحت لواء النعمان بن مقرن المُزَني ، وكان له في هذه المعركة أثرٌ أيَّ أثرٍ ! وكان القعقاعُ على المُجرّدة[1] ، وقد خشي المسلمون أن يطول حصارُ المدينة دون جَدْوىٰ ، إذ كان الفرْسُ قد تحصَّنوا داخلها ، فلا يخرجون منها إلَّا إذا أرادوا الخروج . واجتمع النعمانُ بقادة جيشهِ لِيجدَ حلًّا يُعينه على فتْح المدينة ، فاستقرَّ الرأيُ على أن يبعث النعمانُ خيلًا لِيَنْشَبْ القتال ، ثم تنسحب الخيلُ مُظْهِرَةً الفرارَ ، حتى يتعقَّبها الفرس ، وعند ذلك يهاجم المسلمون ، في معركةٍ تدور رَحَاها خارجَ أسوار

---

(١) المجردة : هي القوات المؤلفة من الفرسان التي تتقدم أمام المقدمة لحمايتها ، والمجردة : الذين لا يلبسون الدروع الحديدية .

المدينة الحصينة .

فمَن يقود الخيلَ لِتنفيذِ هذه الخطة بدقةٍ وإتقانٍ واندفاع ؟

أمر النعمانُ القعقاعَ ، فقاد الخيل وأنشب القتالَ ، فلمّا خرج الفرس لقتاله ، نكص ، ثم نكص ، ثم نكص ، وظنَّ الأعاجمُ أنها هزيمةٌ فاغتنموها ، وخرجوا حتى لم يبقَ منهم سِوى مَن يحرسُ الأبواب . وتقهقرَ القعقاعُ بالمسلمين ، حتى انقطعَ الفرسُ عن حصونهم ، ثم أعاد الكَرَّة عليهم بهجوم مضادٍّ فلما هاجمهم المسلمون في العَراء ، استطاعوا التغلُّبَ عليهم ، وبذلك انتهتِ المعركة - التي أطلق عليها المؤرِّخون : « فتح الفتوح »[1] - بنصر المسلمين ، وكان للقعقاع في هذا النصرِ نصيبٌ مرموقٌ . ولما انتهتِ المعركة ، كان القعقاعُ بفرسانه في مقدِّمة من طاردوا الفُلولَ الهاربة ، وانطلق القعقاع في أثَرِ « فيرزانَ » قائدِ الفُرس ، حتى أدركه في ثنيَّة همذان ، وتصادف أنْ كانت الثنيَّةُ مشحونةً بقافلةٍ من البغال والحمير محمَّلةً بحمولة من العَسَلِ ، فَحَبَسَتْ « فيرزانَ » عن المرور ، فلمَّا رأى القعقاع في أثرِه قد أدْرَكَهُ ، نزل عن جَوادِه وجرى في الجبل ؛ إذْ لَمْ يجدْ سبيلًا يذهب فيه ، ونزل القعقاع عن جَوادِه أيضًا ، فتبعَه حتى أدركه وقتله . وفي ذلك قال المسلمون مُتفكِّهين : إنَّ لله جنودًا من عسلٍ !

الفارج الكُرَبَ العظامَ بمثلِهَا ... والتارك المَلِكَ العزيزَ ذَليلا
نَطَقَتْ بسؤْدُدِكَ الحَمامُ تغنّيًا ... وبما تجشِّمُهَا الجيادُ صَهيلا
ما كلّ مَن طَلَبَ المعالِيَ نافِذًا ... فيها ولا كلّ الرجالِ فُحُولا[2]

رحمك اللهُ يا قعقاع ... ألم تَقُلْ يا سيدي :

---

(١) البلاذري صـ ٣٠٢ .

(٢) من ديوان المتنبي صـ ١٤٥ - ١٤٨ طبع دار صادر .

ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تِهَامةَ يهدي المناقِبَ راكبًا لعيارِ
في جُنْدِ سيفِ اللهِ سيفِ محمَّدٍ والسابقينَ لسُنَّةِ الأحرارِ

رحمك الله ورضي عنك .. نجدةَ الفوارس وليْثَهَا .

يدعونَ قَعقاعًا لكلِّ كَريهةٍ فيجيبُ قعقاعٌ دُعَاءَ الهاتِفِ

وسيذكر التاريخ للقعقاعِ أنه ضرب رقمًا قياسيًّا في عدد المعارك التي خاضها في العراق وبلاد الشام وفارس ، وكانت له في كلّ معركةٍ خاضها قصةٌ مُشرِّفةٌ خالدةٌ ... إحدى عشرةَ معركةً كبيرةً : سبعٌ بالعراق ، وثلاثٌ بسورية ، وواحدةٌ في إيران ، فكم معركة صغيرة لم يذكرها له التاريخ ؟!

وسيذكر التاريخ للقعقاع القائد – بطل الإسلام ، وفارس العرب – أنه القائد الوحيدُ الذي قاتل في معاركِ الفتْح الإسلامي الثلاثةِ الحاسمة : القادسية واليرموك ونَهاوند ، وأبلى فيها كلِّها بلاءَه ، بل كان في القادسية قائدَ الميْدان الفعلي وفارسَه .

عَمرُو بنُ العَاصِ السَّهْمِيّ ، فاتحُ فلسطينَ ومصرَ وليبيا :

قال رسول الله ﷺ : « أسلم الناسُ ، وآمن عَمرُو بن العاص »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « ابنا العاصِ مُؤْمنان »[2].

وعن عمرو بن العاص ، قال : كان فَزَعٌ بالمدينة ، فأتيتُ على سالمٍ مولى أبي حذيفةَ ، وهو مُحْتَبٍ بحمائِلِ سيفه ، فأخذتُ سيفًا فاحتَبَيْتُ

---

(١)

(٢) إسناده حسن ، رواه أحمد ، والحاكم ، والنسائي في فضائل الصحابة ، عن أبي هريرة .

بحمائله ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّهَا الناس ، ألا كان فَزَعُكُم إلى الله وإلى رسوله ؟! » ، ثم قال : « ألا فعلتُم كما فعَل هذانِ الرجلانِ المؤمنانِ ؟! »[1].

لما أسلم هو وخالدٌ ، قال رسول الله ﷺ : « أَلقتْ إليكم مكَّةُ أفلاذَ كَبِدِهَا » .

وكان عَمرٌو من فرسانِ قريشٍ وأبطالهم ، مذكورًا بذلك فيهم ، وكان فوق ذلك معروفًا بالدَّهَاءِ وحُسْن التَّصرُّف ، فلما أسلم قال عمرو : ما عَدَل بي رسول الله ﷺ وبخالدِ بن الوليد أحدًا من أصحابه في حرْبه ، منذ أسلمتُ .

الرَّسول ﷺ يُوَلِّي عَمْرًا القيادةَ في ذاتِ السَّلاسل :

« ولّى رسول الله ﷺ عَمْرًا قيادة سَرِيَّةٍ مُؤلَّفة من ثلاثمائة رجلٍ من أشراف المهاجرين والأنصار ، لِصَدِّ جمعِ « قُضَاعة » الذين يريدون أنْ يهاجموا أطرافَ المدينة المنَوَّرة ، فسار عمرٌو الليلَ وكَمَنَ النهارَ ، فلمّا قرُب مِنَ القوم ، بلغَهُ أنَّ لهم جَمْعًا غفيرًا ، فاستمدَّ رسولَ الله ﷺ ، فبعث إليه أبا عبيدة في مائتيْن وعقَد له لواءً ، وبعث به،معه سراةُ المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وأراد أبو عبيدة أن يؤُمَّ الناس ، فقال عمرٌو : إنما قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَدًا ، وأنا الأميرُ . وما زال عمرو بأبي عبيدة حتى أطاعه ، وسار عمرٌو حتى وَطِئَ بلادَ « بَلّي » ودوّخها ، وأتى إلى أقاصي بلادهم وبلاد « عُذرة » و« بَلْقَين » ، ثم لقيَ جمعًا ، فحمل عليهم المسلمون ، فهربُوا في البلاد . وقفَل عمرٌو راجعًا إلى المدينة . ولمّا هَزَمَ المسلمون أعداءَهم طَمِعُوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، فحالَ عمرٌو بينهم وبين ذلك ، ثم أرادوا

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد في مسنده ، والنسائي في الفضائل .

أن يُوقدوا نارًا يَصْطَلُون عليها من البرد ، فمنعهم عمرٌو أيضًا ، فشقّ على المسلمين ذلك ، ولم يحتمِلُوا تلك الشِّدَّة ، فشكَوْه إلى رسول الله ﷺ ، فكلّمه في ذلك ، فقال له عمرٌو : كرهتُ أنْ آذنَ لهم أن يُوقدوا نارًا فيرىٰ عدوُّهم قلَّتَهم ، وكرهتُ أن يَتْبَعُوهم فيكون لهم مَدَدٌ . فأُعجِبَ به رسولُ الله ﷺ أيَّما إعجابٍ ، وَحَمِدَ له رأيه »[1].

هَدْمُه لِسُوَاعٍ :

وبعثه النبي ﷺ لهدْم « سُواعٍ » صنمِ هُذيلٍ فهدمَه ، وأسلم سَادِنُه على يد عمرٍو .

في حروب الرِّدَّة :

« لمَّا مات رسول الله ﷺ وعَمرٌو بِعُمانَ ، أقبل حتى نزل بقرَّة بن هبيرة ومعه جيشٌ من بني عامرٍ ، فأكرم قرَّةُ مَثْواه ، فلما أراد عَمرٌو الرحلةَ ، خَلا بِهِ قرَّةُ ، وقال : يا هذا ، إنَّ العربَ لا تَطيبُ لكم نفسًا بالأتاوَة ، فإنْ أعفيْتموها من أخْذ أموالكم ، فتسمع لكم وتُطيع ، وإنْ أبيْتم فلا تجتمع عليكم . فقال عَمرٌو : أكفرتَ يا قرّة ؟! أتخوِّفنا بالعرب ؟! فواللهِ لَأُوطِئنَّ عليك الخيل في حِفْشِ أُمِّكَ »[2].

ولما وصل عمرو المدينة عقد له أبو بكر لواءً ، وأرسله إلى قُضاعةَ لمّا ارتدَّت ، فسار عمرو بجيشه ، فأعمل السيفَ في رقابهم وغلبهم على أمرهم ، فعادوا إلى الإسلام ، وعاد هو إلى المدينة حامِلًا لواءَ النصر .

* * *

(١) السيرة الحلبية ٣ / ٢٧٣ ، وتاريخ الخلفاء صـ ٧٢ .
(٢) الحِفْشُ : بيتٌ تنفرِدُ فيه النُّفَسَاء .

في أرضِ الشامِ :

لمَّا أراد الصدِّيق إرسالَ الجيوش إلى الشام ، كتب إلى عمرٍو : قد أحببتُ أنْ أُفرّغَكَ لِمَا هو خيرٌ لك في الدنيا والآخرة . فكتب إليه عمرٌو : « إني سَهمٌ من سهامِ الإسلام ، وأنت - بعد الله - الرامي والجامعُ لها ، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها ، فارمِ به شيئًا إنْ جاءك من ناحيةٍ من النواحي »[1]. فعقد أبو بكر لعمرو ، وأمرَه أن ينصرف إلى أرض فلسطين ، وأراد عَمرٌو أن يتولَّى قيادة الجيوش في الشام ، فجاء عمرٌو إلى عُمَرَ وقال له : « يا أبا حفص ، أنت تعلم شدَّتي على العدوِّ ، وصبري على الحرب ، فلو كلّمتَ الخليفةَ أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة ... وإني لأرجو أن يفتح الله على يدَيّ البلاد ويهلك الأعداء » . فقال عمر بن الخطاب : « ما كنتُ بالذي أكلِّمُه في ذلك ؛ فإنه ليس على أبي عبيدة أميرٌ » .

وفي « اليرموك » كان عمرٌو على الميمنة[2] ، فكان له أثر كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة ، وفي معركة فتْح دمشق كان عمرٌو على باب توما ، وفي « فحْلٍ » كان عمرٌو وأبو عبيدة على المجنَبتيْن ، وشهِدَ عمرو مع شُرحبيلَ فتحَ « بَيْسَانَ » و« طبرية » ، وصالحا أهل الأردن .

رَمَيْنَا أرطبونَ الرُّومِ بأرطبون الغرب :

عَلِمَ عَمْرُو بن العاص أنّ الرومَ حشدوا جيوشَهم ، وعلى رأسها قائد فلسطين : أرطبون (أريطيون) في أجنادين ، فسار عمرٌو ومعه شرحبيل ابنُ حَسنَة واستخْلفَ على الأردن أبا الأعورِ السُّلمي ، وكان الأرطبونُ أدهى

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٤ .

(٢) الطبري ٢ / ٥٩٣ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٨ .

الروم وأبعدَها غَوْرًا ، وكان قد وضع بالرّملة جندًا عظيمًا ، وبإيلياءَ جندًا عظيمًا أيضًا ، فلما بَلَغَ عمرَ بن الخطاب الخبرُ قال : « رَمْينا أرطبونَ الروم بأرطبون العرب – يقصدُ عَمرًا – فانظروا عمّا تنفرج به » وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر على الأرطبون ولا تَشفيه الرسلُ ، وكان رضي الله عنه يُقدِّر قيمة الاستطلاع حقَّ قدْره ، ولذا أقدمَ على مغامرةٍ استطلاعيةٍ فَذَّةٍ ، وهي قيامُه بالاستطلاعِ الشخصي لمَقَرّ قائد الروم ، والذي كاد أن يكلِّفَه حياتَه . سار عمرٌو إلى أرطبون بنفسه ، ودخلَ عليه كأنه رسولٌ ، ففطِنَ به الأرطبونُ ، وقال : لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَن يأخذ الأميرُ برأيه . فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به ، وَفَطِنَ عمرو إلى غَدْر الأرطبون ، فقال له : « قد سمعتَ مِنّي وسمعتُ منك ، وقد وقع قولُك مني موقِعًا ، وأنا واحد من عشرةٍ بَعَثَنَا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانِفَه ويُشهدنا أمورَه ، فأرجع آتيك بهمُ الآن ، فإنْ رأوْا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرى ، فقد رآه أهلُ العسكر والأميرُ ، وإن لم يَرَوْه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمْرك » . فقال الأرطبون : نعم . وردّ الرجلَ الذي أمَرَه بقتْل عمرٍو ؛ فخرج عمرٌو مِن عند الأرطبون ، فَعَلِمَ الروميُّ بأنَّ عَمْرًا خَدَعَه ، فقال : خدعني الرجل ، هذا أدهى الخلْق !! وبلغتْ خديعتُه عمر ابن الخطاب ، فقال : لله دَرُّ عَمرو ! وعَرَفَ عمرٌو من استطلاعِهِ الشخصي هذا نقاطَ الضَّعف في مواضع الروم فهاجمهم ، واقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك ، حتى كَثُرَتْ القتلىٰ بَيْنهم ، ولكنَّ أرطبونَ انهزم فأَوَىٰ إلى إيلياء ، ونزل عمرٌو أجنادينَ ، وانضمَّ علقمةُ ومسروقٌ وأبو أيوب إلى عمرٍو بأجنادين .

ولما دخل أرطبون « إيلياء » ، فتح عمرو « غَزَّة » ، و« سبسطِية » و« نابلس » ، و« اللّد » ، و« يُنْبَى » و« عَمْواس » ، و« بيت جبرين » ، و« يافا » و« رفح » ، وحاصر هو وأبو عبيدة « إيلياء » (بيت المقدس) .

لقد كان فَتْحُ أكثر فلسطين على يديْه رضي الله عنه .

فَتحُ مِصرَ :

كان لحضور عمرٍو إلى مصر في الجاهلية أثرٌ كبيرٌ على معرفتِهِ بأخبار مصر ؛ طرقِهَا وطبيعةِ أرضها ، ومدى اضطهادِ الروم لأهلها ، فلا عجبَ أنْ يُقدِم عمرٌو على دخول مصر على رأس ثلاثةِ آلافٍ وخمسمائةِ رجلٍ فقط ، إذْ لولا تيسُّرُ المعلوماتِ الكافية لديه عن مصر وأهلها ، وضعْف حاميتها ، لَمَا كَانَ مِنَ المعقول أنْ يُقْدِمَ على فتْح مصر بمثلِ هذا العدد الضئيلِ مِنَ الرجال .

لمّا كتبَ عمرُ بن الخطاب إلى عمرٍو أنْ يسيرَ إلى مصر في جنده ، خرج فنزل العريش ففتحها ، ثم أتى إلى « الفَرَما » وبها قومٌ مستعدّون للقتال ، فحاربهم عمرٌو وهزمهم ومضى قُدُمًا إلى الفسطاط ، وكان اسمُها : « البونة » ، فنزل « جنانَ الريْحان » ، وقد خندق أهلُ الفسطاطِ ، فحاصرهم عمرٌو حتى ورد عليه الزبير في عشرةِ آلافٍ أو اثني عشر ألفًا ، واستمرَّ الحصارُ حتى فُتِحَتْ ، كما بيّنا في ترجمة الزبير .

ولما فتح عمرو حصنَ « بابليون » ، وجَّه عبدَ الله بن حذافة السَّهمي إلى « عيْن شمس » ، فغلب على أرضها ، وصالحَ أهلَ قُراها على مثلِ صلْح الفسطاط ، كما وجّه خارجةَ بنَ حذافة العدوي إلى « الفيُّوم » ، و« الأشمونين » ، و« إخيم » ، و« البشرودات » ، وَقُرَىٰ الصعيد ، فصالحَهَا على مِثْلِ صلْح الفسطاط ، ووجّه عميرَ بنَ وهبٍ الجُمَحِي إلى « تَنِّيس » و« دمياط » و« تونة » و« دميرة » و« شطا » و« دقهلة » و« بنا » و« بوصير » ، فصالحها على مثلِ صلْحِ الفسطاط ، ووجَّه عُقْبة بنَ عامرٍ – وقيل : وردانَ مولاه – إلى سائرِ قُرَىٰ أسفل الأرض ، ففعل مِثْلَ ذلك ، وبذلك استجمع عمرٌو

فتْح مصرَ ، فصارت أرضُها أرضَ خَراجٍ .

وسار عمرٌو إلى الإسكندرية ، وكان من دون الإسكندرية - الرومُ والقبطُ ، قد تجمَّعُوا له فلقيَهم بـ« الكريون » قُرْبَ الإسكندرية فهزمهم ، وَقَتَل منهم مَقْتلةً عظيمةً ، ثم سارَ عمرٌو حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فوجد أهلها قد أعـدُّوا العُـدَّةَ لِقِتَالِهِ ، لكنَّ القبطَ منهم كان يرغبون في الصُّلْح ، فحـاصرها عمرو ، فأرسـل إليه « المُقَـوْقِسُ » ، يسـأله الصُّلْح والمهادنة إلى مُدَّةٍ ، فأبَىٰ عمرٌو ذلك ، وأمَر المقوقس النساءَ أن يقمْنَ على سُور المدينة ، مُقبِلاتٍ بوجُوههنَّ إلى داخله ، وأقام الرجال بالسّلاح مقبلين بوُجوههم إلى المسلمين لِيُرْهبَهم بذلك ، فأرسل إليه عمرٌو : إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غَلَبْنَا مَنْ غَلَبْنَا ، فقد لقينا « هِرَقْل » ملككُم ، فكان مِن أمْره ما كان . فقال المُقوقِسُ لأصحابه : قد صدق هؤلاء القومُ ؛ أَخْرَجُوا مَلِكَنَا من دارِ مملكته ، حتى أدخلوه « القسطنطينية » ، فنحن أوْلى بالإذعان . فأغلظ له أصحابُه القولَ ، وَأَبَوْا إلَّا القتالَ ، فقاتلَهم قِتالًا شديدًا ، وحصروهم ثلاثة أشهرٍ ، ففتحها عمرو بالسيف ، واستخلف عمرو على الإسكندرية عبدَ الله بنَ حُذافة ، وانصرفَ إلى الفسطاط[1].

فَـتْحُ لِيبْـيَا :

اخترق عمرٌو الصحراءَ حتى بلغ « بَرْقة » ، فافتتحها عمرو وصالَحَ أهلَها على الجزية ، ووجّه عمرٌو عقبةَ بنَ نافعٍ حتى بلغ « زَويلة » ، وصار ما بين « برقة » و« زويلة » للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل « أطرابلس » ، وكانت حصونُها أقوىٰ من حصونِ « برقة » ، وحامِيَتُها أكثر عددًا ، فامتنعتْ عن العَربِ شهرًا واحدًا ، ولكنها استسلمتْ للفاتحين ، وبذلك أنجز عمرٌو

(١) البلاذري صـ ٢٢١ - ٢٢٢ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٩ .

فتْحَ ليبيا .

في النّوبة :

أراد عَمرٌو أن يُؤَمِّن مصرَ من الجنوب ، فبعث عقبةَ بنَ نافع الفِهْرِيّ ، فدخلتْ خيولُهم أرضَ النوبة ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا ؛ إذْ كان أهلها ماهرين برمي السِّهام ، فرشقُوا المسلمين بالنَّبْل حتى جُرِح عامَّتُهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرةٍ وحدق مفقودة ، فلم يصالحْهم عَمرو ، ولم يزلْ يهاجمهم بَيْنَ حينٍ وآخر .

العَوْدُ إلى قِتالِ الرُّومِ بالإسكندرية :

كتب أهلُ الروم إلى « قُسْطَنْطِينَ » إمبراطورِ الروم ، يهوّنون عليه فَتْحَ الإسكندرية ؛ لقلَّةِ ما بها من حاميةٍ للمسلمين ، فبعثَ رجلًا مِن أصحابه في ثلاثمائةِ مركبٍ مشحونة بالمقاتِلة ، فدخَل الإسكندرية وقتل مَن بها من المسلمين المرابطين ، إلا مَنِ استطاعَ النجاة بنفسه . وَبَلَغَ عمرًا الخبرُ فسار إليهم ، وكان « منويل » قائد الروم قد تقدَّم نحوَ الجنوب ، ورجالُه يَعيثُون في الأرض فسادًا ، حتى وصلُوا « نَقْيُوس » ، حيث اشتبكُوا بالمسلمين – الذين كان عددُهم خمسةَ عشرَ ألفًا – بقتالٍ عنيفٍ في البَرِّ والبحر ، وكَثُرَ الترامي بالنّشَّابِ حتى أصابت فَرَسَ عَمرٍو ، فنزل عنه ، وشدّ المسلمون على الرومِ وقاتلوهم قتالًا مُستميتًا ، حتى غلبوهم على أمْرهم ، فانهزم الروم ، وطاردهم المسلمون ، فتحصَّنَ الرومُ بالإسكندرية ، ولكنَّ المسلمين قاتلوهم أشدَّ قتالٍ ، وَنَصَبُوا المجانيقَ حتى دخلها المسلمون عَنْوةً[1].

ينـادي الأرطبـونُ يا بـلادي أضعْـتِ الهَـدْيَ كنَّـا فاتحينـا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢٢٣ .

فيَا فسطاطَ عَمرِو العاص عُودي ... يعـودُ الطـيرُ كـمْ نَزَحَ السِّنينا

لك الله يا عمرُو مِن قائدٍ يحارب بِعَقْلِهِ وسيْفه !!

لقد اجتمعتْ في عَمرٍو كلُّ عناصرِ القيادة ؛ من شجاعةٍ وبطولَةٍ ، وإقدام ، ورأْيٍ سديدٍ وعقلٍ راجحٍ ، وفوق هذا : دهاءٌ في موضعه .

« كان عُمر بنُ الخطاب إذا رأىٰ رجلًا يتلجلج ، يقول : أشهدُ أنَّ خَالِقَ هذا ، وخَالِقَ عمرو بن العاص : واحدٌ »[١].

وكان إذا استضعف رجلًا في رأيه وعقله ، قال : « أشهد أن خالِقَك وخالقَ عمرٍو : واحدٌ » ، يريد خالق الأضْدادِ[٢].

وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرٍو يمشي ، يقول : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا »[٣].

فرضي الله عن عَمرِو بن العاص ، الذي يحتلُّ أنْصَعَ صَفَحَاتِ الفتح الإسلامي في تاريخ العرب والمسلمين ؛ بِفَتْحِهِ لفلسطين ومصر وليبيا ، وهي بلادٌ لم يفتحْ غيرُه من قادةِ العرب أوسعَ منها وأكثرَ خيرًا .

هـذه الأرضُ التي قـد زينـتْ ... بنجومِ المجدِ تحبُو في سَمَاهَا

هاهنـا مـرَّ الزبـيرُ وهاهنـا ... ضمَّخَ ابنُ العاصِ بالطِّيبِ ثَراها

أمَّا واقِعُنَا :

ماذا تبقَّىٰ من ضياء الصُّبح في عينِ الوطنْ

---

(١) الإصابة ٥ / ٢ - ٣ .

(٢) الاستيعاب ٣ / ١١٨٨ .

(٣) الإصابة ٥ / ٢.

والشمسُ تجمعُ ضوءَها المكسورْ
والصبحُ الطريدُ
رفاتُ قِدّيسٍ يفتِّشُ عنْ كَفَنْ
النيلُ بين خرائِبِ الزمنِ اللقيطْ
يسيرُ مُنكسرًا على قدمَيْنِ عاجزتَيْنِ
ثُمَّ يطلُّ في سَأمٍ ويسأل عن سَكَنْ
يتسوَّل الأحلامَ بين الناسِ
يسألهم وقدْ ضاقتْ به الأيامُ
مَنْ منّا تغيَّر ؟..
وجْهُ هٰذي الأرضِ .. أمْ وجهُ الزمنْ
في كلِّ يومٍ يشطرون النهرَ
فالعينانِ هاربتانِ في فَزَعٍ
وأنفُ النيل يسقط كالشظايا
والفمُ المسجون أطلالٌ
وصوتُ الريحِ يعصفُ بالبَدَنْ
قدمانِ خائرتانِ .. بطنٌ جائعٌ
ويدٌ مُكَبَّلةٌ .. وسيفٌ أخرسُ
باعُوهُ يومًا في المزادِ بلا ثَمَنْ
النيلُ يرفعُ رايةَ العِصيانِ
في وَجْهِ الدمامَةِ ... والتنطُّع ... والعَفَنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِنْ ضياءِ الصبحِ

في عَيْن الوطنْ ..
الآن فوقَ شواطئ النهرِ العريقِ
يموتُ ضوءُ الشمسِ
تصمُتُ أُغنياتُ الطيرِ .. ينتحِرُ الشجرْ
خَنقُوا ضياءَ الصُّبحِ في عين الصغارِ
ومَزَّقوا وَجْهَ القمرْ
باعُوا ثيابَ النهرِ في سُوق النِّخاسَةِ
أسكتُوا صوْتَ المَطَرْ ..
في كلِّ شِبْرٍ وَجْهُ ثُعبانٍ بلوْنِ الموتِ
يَنْفُثُ سُمَّهُ بين الحُفَرْ ..
في كلّ عينٍ وَجْهُ جَلّادٍ يُطِلُّ ويختفي
ويعودُ يزأر كالقَدَرْ ..
صَلَبُوا على الطرقاتِ
أمجادَ السنينِ الخُضْرِ
باعُوا كلَّ أوْسِمَةِ الزمانِ البِكْرِ
عُمْرًا .. أو ترابًا .. أو بَشَرْ ..
أترىٰ رأيتم كيفَ يُولد عندنا
طفلٌ وفي فَمِهِ حَجَرْ ؟
لَمْ يَبْقَ شيءٌ للطيورِ علىٰ ضفافِ النيلِ
غيرُ الحزن يَعْصِفُ بالجوانِحْ
زمنُ العصافير الجميلةِ قد مضىٰ
وتحكَّمَتْ في النهرِ أنيابٌ جَوارِحْ
زمنُ القراصِنَةِ الكبارِ

يُطلُّ في حُزْن العيونِ ..
وفي انطفاءِ الحُلمِ ..
في بؤْسِ الملامِحْ ..

* * *

ماذا تَبقَّىٰ مِنْ ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوَطَنْ
زمنُ الفوارِسِ قد مضَىٰ ..
قلْ للخُيولِ تَمَهَّلي في السَّيْرِ
فالفُرسانُ تسقُط في الكمائِنْ
قلْ للنوارسِ حاذري في الطيرِ
إنَّ الريحَ تعصِفُ بالسفائِنْ
قلْ للطيورِ بِأَنَّ وجهَ الموتِ قنَّاصٌ
يطوفُ الآنَ في كلّ الأماكنْ ..
ويلٌ لماءِ النهرِ حينَ يجيءُ مُنكَسِرًا
وفي فَزَعٍ يُهادِنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِن ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوطنْ
والنهر مسجونٌ وطَيْفُ الحلمِ
بين رُبوعِهِ يَجري ويصرخُ في أَلَمْ
لم يبقَ شيءٌ فوق أطلال الشواطىء
غيرُ عصفور كسير كان يشدو بالنَّغمْ
لمْ يبقَ بينَ حدائقِ الأطفالِ

غيرُ فراشةٍ بيضاءَ مَاتَتْ
حينَ حَاصَرَهَا العَدَمْ
لم يَبْقَ غيرُ كَتَائِبِ الجَهْلِ العتيق
تُطِلُّ في خُبْثٍ .. وتَضحكُ في سَأَمْ
مَنْ باعَ للَّيلِ الطَّويلِ عيونَنَا ؟
مَنْ أخْرَسَ الكلماتِ فينا ؟
مَنْ بحدِّ السيفِ ينتهكُ القلمْ ؟

* * *

مَاذَا سَيَبْقَىٰ بعدَ موتِ النهرِ
غيرُ شُجَيْرَةٍ صفراءَ تبحثُ عن كَفَنْ
ماذا سيبقىٰ بعدَ قتْلِ الفجْرِ
غير سحابةٍ سوداءَ
تَبكي فَوْقَ أطلالِ الوَطَنْ
ماذا سيبقىٰ مِنْ رُفَاتِ الصُّبحِ
غير شراذِمِ الليلِ القبيحِ
تحومُ في وَجْهِ الزمَنْ

* * *

يَـٰأَيُّـهَا الليلُ الطويلُ
ماذا يَضيرُكَ إنْ تركتَ الصبحَ يَلْهُو
فوقَ أعناقِ الحَدائِقْ ..
ماذا يَضيرُك إنْ غَرستَ القمحَ في وطَني

وحَطمتَ المشانِقْ
في كلِّ بيتٍ في مدينتنا سُرَادِقْ
ماذا يضيركَ أن يعودَ العدلُ فينا شامِخًا
ويطوفُ مرفوعًا علىٰ ضَوْءِ البَيَارِقْ
مَاذَا يَضيرُكَ أنْ تعودَ الشمسُ
تسري في العيونِ
وأن يعودَ الفجرُ يقتحمُ الخَنَادِقْ
ماذا يَضيرُكَ أنْ يعودَ النّوْرَسُ المقهورُ
يَصْدَحُ في السماءِ ..
فلا تطاردُهُ البنادقْ
ماذا يضيرك أنْ تعودَ قوافِلُ الأحلامِ
تسكنُ في العيونْ
ماذا يضيرك أنْ يصيرَ الحَرْفُ حُرًّا
لا قيودَ .. ولا سياطَ .. ولا سجونْ ..

* * *

يَـٰأَيُّـهَا النهرُ الجَليلْ
أنا مِن بلاطِكَ مُستقيلْ ..
أنا لن أغنِّي في سجونِ القَهْرِ
والليلِ الطويلْ
أنا لنْ أكونَ البُلْبُلَ المسجونَ في قَفَصٍ ذليلْ
أنا لن أكونَ الفارسَ المهزومَ
يجري خلفَ حُلْمٍ مُستحيلْ ..

ما زال دمعُ النيل في عيني
دماءٌ لا تجفُّ .. ولا تسيلْ
الآن أُعْلِنُ .. أنَّ أزْمِنَةَ التنطُّعِ
أخرستْ صوْتي
وأنَّ الخيْلَ مَاتَتْ عندما اختنقَ الصهيلْ ..
يَـأَيُّـهَا النهرُ الجليلْ
إنْ جِئْتَ يومًا شامخًا ..
ستعودُ في عَيْنَيَّ .. نِيلْ[1] ...

وفي واقعنا يا عمرو :

كانت نكسةُ « يونيو » .. ووقفتْ « كوكبُ الشَّرْقِ » تُغَنِّي لِلَّيْل ، والخمر ، والحبِّ الضائع ، والدَّمُ البَريءُ يَسِيلُ على كلِّ رابِيَةٍ .. والعارُ الأَسْوَدُ يجلِّلُ جِبَاه المُخدَّرين والمُخدَّراتِ ، ممَّن راحتْ تصفعُ وجوهَهم ولا يشعرون : هذه ليلتي ، وحُلْمُ حياتي . وساعَتَها قال صَحَفِيٌّ في مجلة « الصيَّاد » : إني أعرفُ مكانةَ « أُمِّ كلثوم » عند العرب .. وأعرفُ كذلك أنَّ حبَّ الكثيرين لها يوازي حبَّهم لفلسطين .

خذِّريهِمْ يا « كوْكبَ الشَّرْقِ »

« كَوْكَبَ الشَّرْقِ » لا تذوبي غَراما ... وَدَلَالًا وَحُـرْقةً وَهَيَامَـا
لا .. ولا تنفثي الضيَّاعَ قصيدًا ... عَبْقـريًّا أو تُرسـلي الأَنْغَـاما
فَدِمَـاءُ الأحبـابِ في كلِّ بيتٍ ... تتـنزَّىٰ وتبعـثُ الآلامـا
وجراحُ « الأقصىٰ » جراحُ الثكالىٰ ... ودموعُ « الأقصىٰ » دموعُ اليَتَامَىٰ

(١) قصيدة : « أغنية للوطن » لفاروق جويدة - الأهرام : ٢٥ / ٦ / ١٩٩٥ م .

أيُّهَا الشعبُ خدّرتْه الليالي ... مُثَقَّلاتٍ تفجَّرتْ آثاما
فعنِ الحقِّ تارةً يتلهّىٰ ... وَعَنِ الثُّورِ تارةً يتعامىٰ
يَتَهَاوَىٰ على ذراعِ طَرُوبٍ ... أو لَعُوبٍ في حِضْنِها يترامىٰ
وإذا الشِّعْرُ بالكُئوسِ تغنَّىٰ ... « والنُّوَاسِيُّ عانَقَ الخيّاما »
وأَنِينُ الكَمَانِ صارَ أذانًا ... في حِمَىٰ البيتِ .. والنديمُ « إماما »
وإذا « ليلتي » و« حُلْم حياتي » ... لم نحطِّمْ في فجرها الأصناما
فإلامَ الجهادُ يا « كوكبَ الشَّر ... قِ » وما بالُنا نهزُّ الحُسَاما
لا تُغنّي الخيّامَ يا « كوكبَ الشَّر ... قِ » وتسقي من راحتَيْهِ المُدَاما
ففلسطينُ لا تحبُّ السّكَارىٰ ... وَرُبَىٰ القُدْسِ لا تريدُ النِّياما
ولو انَّ الخيّامَ يُبْعَثُ حَيًّا ... هَوَتِ الكأسُ مِن يديْهِ حُطاما
« كوكبَ الشّرق » ضاعَ قومِي لمّا ... تاهَ في حُبِّكِ القطِيعُ وهَاما
مَنَحوكِ الإعْجَابَ يا وَيْحَ قَوْمي ... وعلى الصَّدْرِ علّقُوك وِسَامَا
خَدّريهِمْ باللَّحْنِ يا « كوكبَ الشَّر ... قِ» وصُوغي مِنْ لَحْنِكِ اسْتِسْلاما
أيُّهَا السادةُ الكبارُ سلامًا ... قدْ قتلْتُم في كلِّ نفسٍ سَلاما
وصنعْتُمْ مَجْدًا مِنَ الزَّيْفِ زُورًا ... فأماطَتْ عَنْهُ الليالي اللّثاما[1]
نَسِيَ الناسُ صهيلَ فرسِ الزبير ... وزئيرَ ابنِ العاصِ فاقَ الحُساما
ودماء الشهداء الأُلَىٰ فتحُوها ... في رُبَانَا تَفتَّحَتْ إسلاما

وفي واقعنا .. أصبح المعروفُ مُنكرًا ، والمنكَرُ معروفًا .. وتبدَّلتْ الموازينُ وأقدارُ الرجالِ .. ولسانُ الكلِّ ينعِقُ بتقديس التُّرابِ .. قِيَمُ مصر .. ومبادِئُ مصرَ :

---

(١) من قصيدة : « خدِّريهم يا كوكب الشرق » ليوسف العظم – من ديوان : « في رحاب الأقصىٰ » – ط : المكتب الإسلامي .

مجاويشُ اللَّعينةُ سوْفَ تبقَىٰ ... دليلًا فاضحًا للظَّالمينَا
مجاويشٌ نوادي قومِ لُوطٍ ... وتسخَرُ من تُقَىٰ المُطَّهِّرينا
تناديهم[1] أَيَا قومَ الفراعِنْ ... ويا أحفاد رمسيسَ اللَّعِينا
بأرضِ النيلِ دينُ الجِدِّ أحْمُسْ ... أَيُتركُ دينُ لُوطٍ والأَمِينا
أَتَرْك المسلمينَ لِنَشْرِ طُهْرٍ ... سيبكي مُوَحِّدُ القُطْرَيْنِ « مِينا »
أنتركُهُمْ لتحريمِ الحرامِ ... وقطْعِ يدٍ لِسَرَّاقٍ خَئونا
وَغَلْقٍ للمصارفِ يا مُرابي ... وإنَّ رِبا المصارفِ كَنزُ سِينا
نعودُ إلى البيوتِ .. إلى النِّقَابِ ... إلى لُبْسِ الخيامِ .. ابكِ أمينا[2]
ونغضَبُ يا رفاقَ العمِّ سَام ... بمنْعِ القَمْحِ ما نجدُ الطَّحِينا

* * *

وذكرىٰ كامبَ دِيفيدَ شَدْوُ عُمْري ... وَبيجِنَ كارْتَرَ المبعوثِ فينا
وآثاري .. وأهرامي .. وسِينا ... و« ميت الكومِ » .. مرّ الناصرينا
وموسيقارُنا عبدُ الوهابِ ... وكوكبُ شرقِنَا نَعَقَتْ سنينا
وذاكَ العندليبُ أخو الغرابِ ... أنتركُهُ لِدَعْوَىٰ الطاهرينا
ورقْصُ الشَّرْقِ ذا فنٌّ تجلَّى ... وذا تسبيحُ عَيْنِ الشَّاكرينا
و« موسىٰ » صَبرِهِم يَعْوي جِهارًا ... يَسبُّ الحَبْرَ يَهجُو المسلمينا
و« يُسْرَانا » و« عادِلُنَا إمامٌ » ... و« ليلىٰ » ثم « فيفي » بلْ « لُوسي » طاهرينا
و« غالينا » و« بطرُسُنَا » المُفدَّىٰ ... إمامُ الذَّبْحِ للأحنافِ فينا

---

(١) هذا نداء مجاويش .. قرية العُرَاة ، تُذَكِّر العلمانيِّين بمفاخرهم ورموزهم .
(٢) أمينَة السَّعيد .

وَسَمَّوْنـا الخـوارجَ يا خناسٌ ... بمصـرَ النـيل بلْ والمارقينا
ويا « رأسَ العَمَائِمِ » قُلْتَ كُفْرًا ... وزُورًا بـل وَبهتـانًا مُبينـا
جَعَلْتَ تَعـدُّدَ الزوجاتِ ضُرًّا ... جعلـتُ زبالةَ الأذهـانِ دِينا
لترضَىٰ عنكمُ « جيهانُ » مصرٍ ... فما بقيتْ « جيهانُ » وصار طينا
زَعَمْـتُمْ أنَّكـم أحبـارُ عِـلْمٍ ... وتطعنُ في « ابن تيمية » الأمينا
وكلُّكُـمُ خُـوَاءٌ وهْـوَ بَحْـرٌ ... هـو الصَّبـارُ شيخُ المسلمينـا
وذا قـولُ الأَئِمَـةِ مِنْ قـديمٍ ... ومـا بالطَّعْنِ صـار التِّبْرُ طِينا
أنأخـذُ عنكُـمُ الـدينَ النَّـدِيَّ ... وقـدْ صِرْتُمْ رُعاةَ الفِسْقِ فينا

* * *

وإخنـــاتونُ للتوحـــيدِ داعٍ ... قـديمًا قبْـلَ كلِّ المُرْسَلِينـا
أإخنـاتونُ عـابدُ قُـرصِ شمسٍ ... بزعمِ الكفرِ شيخُ المسلمينـا
وكعبتُنَـا الحبيبـةُ لـو أرادُوا ... لقـالُوا إنهـا كانتْ بـ« سينا »
إلـهُ القـومِ نِيلُهُـمُ العتـيقُ[1] ... رسـولُهُمُ غـدًا طَمْيًا وطينـا
حضـارةُ سـبعِ آلافٍ لِكُفْـرٍ ... وفرعـونُ استخـفَّ الصاغرينا
أليسَ النـيلُ لي ومِصْـرُ ملْكِي ... ومُوسَىٰ سـاحرٌ لَبِثَ السنينا
نربِّـيه صغـيرًا ثمَّ يدْعُـو ... لدينٍ غـيْرِ دينِ السَّاحرينـا
فميمُكُـمُ وصادُكُـمُ وراءٌ ... غـدتْ وثنًا وطاغـوتًا لعينـا[2]
وَنِسْبَتُكُـمْ لأهـرامٍ ووثنٍ ... ونسبتُنـا لتوحـيدِ الأمينـا[3]

---

(١) يقولون : النيل وحّدنا وغرس فينا القيم .. وهو باعث الحياة فينا .
(٢) حضارة مصر وتراب مصر ومبادئ مصرَ وأخلاق مصر ... مصر ...
(٣) هذا القول مُوجَّه للعلمانيين ، لا للمسلمين من أبناء مصر الطيِّبين .

ونسبتُكُمْ لحَتْشِبْسُوتَ كُفْرٌ ونسبتُنَا لحُورِ الدَّارِ عِينا
ونسبتُكُمْ لنيرانٍ تلظَّى ونسبتُنَا لدارِ المُتَّقِينَا
ونسبتُنَا لعَمرِو العاصِ حُبِّي ونسبتُهم لفرعون اللَّعينا
وهذي مساخِرُ الفُسَّاقِ أمي فنادى أينَ رَبَّانُ السفينا

أخي :

النيلُ أصبحَ مَرْتعًا
كي تستَحِمَّ بِهِ البغالْ
وهو النجاشيُّ المسافرُ في القرونِ
فكم رأى قِصَصًا وقالْ
طهِّرْ مياهَ النيلِ مِلْءَ شطوطِهِ
بحديث عَمْرٍو والرجالْ
ذوّبْ لنا الآياتِ ..
دوِّنْ سِرَّهَا في النيلْ ..
هذا كاتِمُ الأسرارِ في لغةِ المُحَالْ
سنُفَتِّشُ الأمواجَ عَنْ مكنونِهَا
فعطّر وِرْدَهَا بِنَذْرِ[1] الزُّبيرِ
ورَوِّهَا قِصصَ الجلالْ

* * *

انتهى المُجلَّد الثالث ويليه المُجلَّد الرابع
إنْ شاء الله تعالى

---

(١) حين وهب نفسه لله ، لفتْح حِصْن بابليون .